

التذوق الأدبي والنقدي عند الخليفة الأموي

" عبد الملك بن مروان "

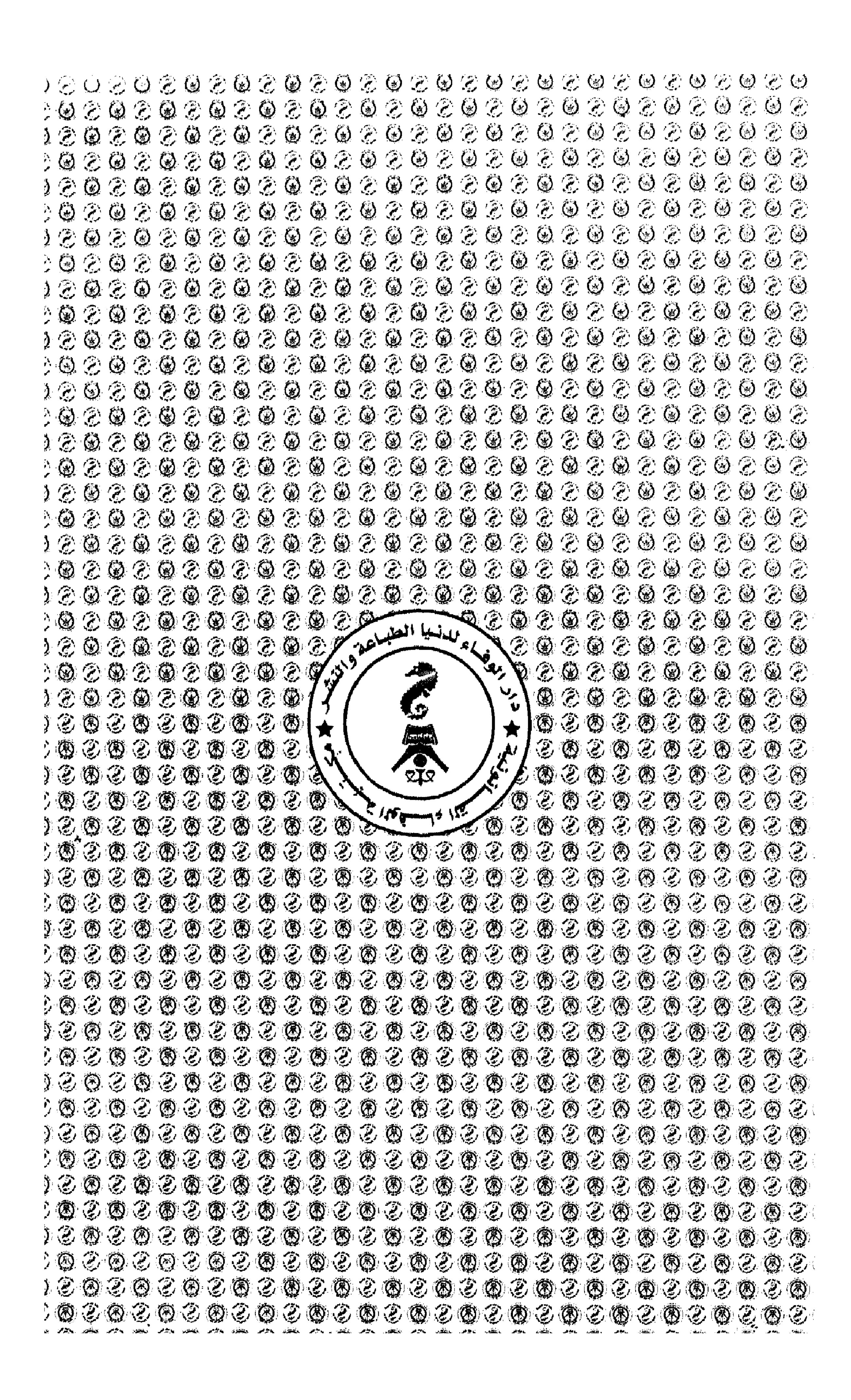


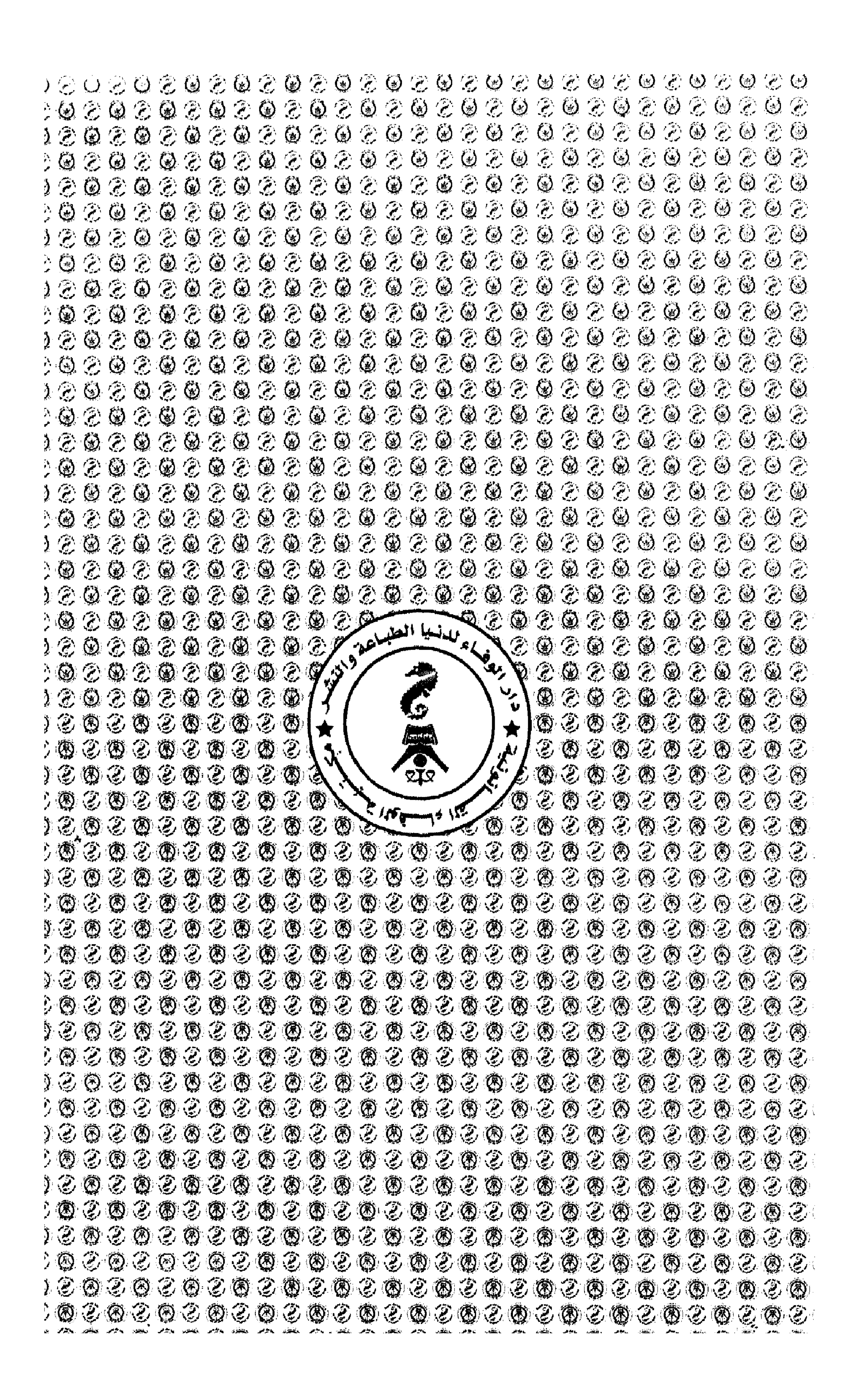




دكتور
سليمان محمد سليمان
أستاذ الأدب والنقد ووكيل كلية الآداب بسوهاج
للدراسات العليا والبحوث - سابقا
والأستاذ بجامعة الملك خالد كلية العلوم الإنسانية بالسعودية


مكتبة
طريق العلم


دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر


دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

التذوق الأدبى والنقدى عند الخليفة الأموى
" عبد الملك بن مروان"

تأليف دكتور

سليمان محمد سليمان

أستاذ الأدب والنقد

ووكيل كلية الآداب بسوهاج

للدراسات العليا والبحوث – سابقاً

والأستاذ بجامعة الملك خالد

كلية العلوم الإنسانية - السعودية

الطبعة الأولى

2015

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : 5404480 ــ الإسكندرية


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، خير من نطق بالضاد، والقائل عن نفسه صلى الله عليه وسلم "أنا أفصح العرب ولا فخر"

فهذه صفحات عنونت لها بـ "التذوق الأدبى والنقدى عند الخليفة الأموى: عبد الملك بن مروان"، وهى تعرض لجانبين ارتبطا بشخص الخليفة الأموى "عبد الملك بن مروان"، فأولهما كان "التذوق"، والمعروف أن الذوق يُعد ملكة من تلك التى تأصلت فى الإنسان منذ القدم، فالذوق ملكة لا غنى لأى ناقد عنها، لأنها تمكنه من التعرف على مواطن الجمال والقبح فيما يعرض له من النصوص عند سماعها أو قراءتها.

ولا شك أن للذوق دوره الأساسى فى النقد، حيث أورد النقاد العرب الكثير من النصوص التى يُفهم منها النقد نصوصاً توصى، لا تحدد، تتُم ولا تفصل جوانب الذوق وكنهه وقدرته"[1]

فالعربى كان بطبعه متذوقاً لفنون القول من شعر أو نثر، وليس ذلك بغريب عليه وقد فطر على ذلك وهى سليقته التى وهبها الله له. ثم يفصح عن رأيه. فملكة النقد حينئذ هى الذوق الفنى

---

(1) راجع فى ذلك بالتفصيل: تاريخ النقد العربى. للدكتور محمد زغلول سلام. ص9: 12. دار المعارف بمصر.

المحض. وقد كان "عبد الملك بن مروان محباً للشعر والفخر والتقريظ والمديح .. وكان عماله على مثل مذهبه"[1]

وكان أكثر خلفاء بنى أمية شأنهم شأن عبد الملك. ومن ثم عُرف الكثير منهم بتذوقهم الأدبى وحسهم النقدى. حيث كانت دولتهم عربية خالصة. ولذا كانت مجالسهم الأدبية دليلاً قوياً على احتفاظ هؤلاء القوم بخصائص عروبتهم: "وأهم تلك الخصائص حبهم الشديد للشعر، وولعهم بسحر البيان وتحسس جوانب الجمال فيه، وتعرفهم إلى أسباب ضعفه ورداءته بفطرتهم السليمة وحسهم المرهف. وأنبههم فى ذلك وأجدرهم بالتنويه– عبد الملك بن مروان– الذى كان ولوعاً بتتبع الكلام، وقادراً على أن يضع يده على مواطن الضعف والخطأ فى الأشعار"[2].

وحقاً قد يكون ما يدور فى مجالس هؤلاء الخلفاء- وخاصة عبد الملك ابن مروان – مطبوعاً بطابع العجلة والارتجال، حيث تصدر فيها عبارات مؤجزة وأحكام سريعة – فالوقت قد لا يتسع لبسط الرأى وتوضيحه. وشرح الأسباب التى بنى عليها تذوقه ورؤيته الفنية لما يدور فى مجالسه الأدبية.

---

(1) مروج الذهب للمسعودى بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. جـ2/71- 1387هـ-1967م.

(2) دراسات فى نقد الأدب العربى. للدكتور بدوى طبانة. ص 105: 106. دار الثقافة – بيروت – لبنان.

ولكن من الحق أن نقول إن هذا التذوق وتلك الرؤية الصائبة كانت هى الأساس للكثير من الآراء النقدية التى ظهرت معالمها واتضحت بعد ذلك.

فلقد خلفت لنا تلك المجالس تراثاً ضخماً من الأدب – شعره ونثره – وثروة كبيرة فى مجال الأدب ونقده. حيث كانت للخليفة عبد الملك مجالسه الأدبية الكثيرة التى يتناول فيها مع جلسائه تذوق الشعر وفهم معانيه وتوجيه الشعراء وإرشادهم لما يجب أن يتحلوا به من ذوق أدبى رفيع، يليق بمن يجالسهم من الخلفاء، أو من يوجهوا إليه تلك الأشعار.

"وللكثير من خلفاء بنى أمية وخاصة عبد الملك بن مروان أحكام نقدية على الشعر، والشعراء ومنازلهم الأدبية، وهى كثيرة".[1]

والحق أنى لا اتفق تماماً مع تلك المقولة التى جاءت على لسان الناقد الكبير قدامة بن جعفر. ولكنى استطيع أن أقول: إن تذوق الخليفة عبد الملك وفهمه الجيد للشعر ومعرفته لمنازل الشعراء وأقدارهم كانت لبنة من اللبنات التى قامت عليها الكثير من الأحكام النقدية، فلا يخفى علينا ما فى هذه الأحكام من الوجاهة والصدق الفنى على الرغم من أن مبعثها الأساسى هو

---

(1) نقد الشعر لقدامة بن جعفر. جـ25. تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي. دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

التـذوق الطبيعـى. وإحســاس بمـا حـوى الـنص الشــعرى مـن عناصـر الجمال والـروعة الأدبية. فهى لم تتناول فى معظمها إلا ناحيـة المعـانى. وهذا هو الذى كان سائداً فى تلك الفترة. ومرجع ذلـك أن اللغة لم تكـن قـد وضـعت لهـا معـالم ثابتـة حيـث كانـت تراثـا مشـتركاً ومعروفاً للجميع الخاصة والعامة. أى لم يكن هناك مقاييس جمالية أو نقدية معينة يستند إليهـا الناقد، وبـذلك يكون نقده موضـوعياً. فالأحكام النقدية تصدر عفوية دون تعليل لها أو بيان لأسبابها.

ومن ثم كان للخليفة عبد الملك بن مروان وغيره ممن كانوا على شاكلته فضل السبق فى التأسيس لهذه الأحكام والتوجيه للنقد الموضوعى الذى ظهر فى العصور التالية فذلك أحد دوافعى للتوجه لدراسة مثل هذا الموضوع، وقد تناولته من خلال مدخل ومحورين أساسيين تسبقهما مقدمة وتتلوهما خاتمة. وجاءت كالتالى:-

أولاً - المدخل: نظرات أدبية لخلفاء بنى أمية.

ثانياً - المحور الأول " مكانة الخليفة عبد الملك بن مروان الأدبية".

واشتمل هذا المحور على النقاط التالية:

1- قبل توليه الخلافة.

2- بعد توليه الخلافة.

3- بعض آثاره الأدبية.

4- موقفه من الشعر والشعراء.

ثالثاً - المحور الثانى: " مجالس الخليفة الأدبية والنقدية "

واشتمل هذا المحور على النقاط التالية:

1- مجالس الخليفة والأخطل شاعر بنى أمية.

2- مجالس الخليفة والشاعر جرير بن عطية.

3- مجالس الخليفة والشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات.

4- مجالس الخليفة والشاعر الفرزدق.

5- مجالس الخليفة والشاعر كثيّر عزة.

6- مجالس الخليفة مع غير هؤلاء الشعراء.

رابعاً - الخاتمـة.

ثبت المصادر والمراجع.



أولا ـ مدخل:

"نظرات أدبية لخلفاء بنى أمية"

لقد قامت دولة بنى أمية على العنصر العربى، وكان عليه النهوض بالدولة وحمايتها من أعدائها. وقد صدق الجاحظ فى وصفه للدولة الأموية بأنها عربية أعرابية.

فقد عرف خلفاء بنى أمية للأدب أهميته وأثره الفعال فى الدفاع عن دولتهم وتوطيد ملكهم. فهذا هو الشاعر مسكين الدارمى يأمره يزيد بن معاوية أن يقول أبياتاً ترشحه للخلافة بعد أبيه فى المجلس الذى يضم الخليفة معاوية بن أبى سفيان وكبار رجال بنى أمية. فيقول:

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد؟

بنى خلفاء الله مهلاً فإنما ... يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاه ربه ... فإن أمير المؤمنين يزيد.[1]

أما الشاعر جرير بن عطية. فإنه يقرر أن عبد الملك بن مروان قد أقام العدل بين الناس كما أقام أمر الدين، وإن الله هدى شيعته وجمعهم حوله وقت تفرق الأهواء والشيع، كما يقرر أن فضل آل مروان فضلاً عظيماً. فيقول:

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه ... ما قام للناس أحكام ولا جمع

أنت المبارك يهدى الله شيعته ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

---

(1) الأغانى لأبى فرج الأصبهانى جـ212/20. طبعة دار الشعب 1389هـ - 1969م.

فكل أمر على يمن أمرت به فينا مطاع ومهما قلت مستمع.[1]

وهذا هو الشاعر الأحوص يبيّن أهليه الوليد للملك وأحقيته باختيار الله له فيقول:

إمام آتاه الملك عفواً ولم يشب على ملكه مالاً حراماً ولا دما
تخيره رب العباد لخلقه ولياً وكان الله بالناس أعلما
فلما قضاه الله لم يدْعُ مسلماً لبيعته إلا أجاب وسلما.[2]

وبذلك مهد الشعراء لخلفاء بنى أمية طريقهم للحكم. كما تمهد الصحف الآن. والتف حولهم كثير من الشعراء إما خوفاً ورهبة منهم، وإما حباً وطمعاً فى عطائهم.

نعم، " وإذا مضينا فى العصر الأموى، وجدنا الأحزاب السياسية تنشأ ووجدنا لكل حزب شعراءه الذين ينحازون إليه ويدعون له ويدافعون عنه .... وهؤلاء الشعراء جميعاً وأمثالهم من المنتمين للأحزاب السياسية كانوا لايعيشون لأنفسهم وإنما لجماهير أحزابهم ... وكان جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من شعراء بنى أمية أشبه ما يكونون بالصحف فى عصرنا أو بوسائل الإعلام، فهم الذين يسجلون أعمال الدولة ومناقب الخلفاء... وهم بذلك كانوا شعراء سياسة مثلهم مثل شعراء الأحزاب الأخرى، وكانت مدائحهم

(1) ديوان جرير. تحقيق محمد إسماعيل الصاوى، ص355: 356- الطبعة التجارية.
(2) الأغانى لأبى فرج الأصبهانى جـ298/1.

تذيع فى العراق موطن الخصومة لبنى أمية، ولذلك عنوا بتقريبهم، وكان جرير أكثرهم قرباً من الشعب فى لغته".[1]

وقد صور ذلك ابن سلام حين سئل: أى البيتين أجود؟ قول جرير:

ألستم خيرَ مَنْ ركِبَ المطايا   وأندى العالمين بُطونَ راحِ؟!

أم قول الأخطل:

شُمْسُ العداوة حتى يُستقادَ لهم   وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا

فقلت: بيت جرير أحلىَ وأَسْير، وبيت الأخطل أجزل وأرزن، فقال صدقت! وهكذا كانا فى أنفسهما عند الخاصة والعامة".[2]

ولقد عُرف الكثير من خلفاء بنى أمية بنظراتهم الأدبية وتأملاتهم النقدية. يدلنا على ذلك:

(1) ما جاء على لسان مؤسس دولتهم الخليفة معاوية بن أبى سفيان حيث يقول:

"يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب.

---

(1) الشعر وطوابعه الشعبية للدكتور شوقى ضيف صــ34: 38. الطبعة الثانية – دار المعارف.

(2) طبقات فحول الشعراء لابن سلام جـ1/494. قرأه وشرحه محمود محمد شاكر. الهيئة العامة لقصور الثقافة.

وقال: اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم."[1]

وقد جاء فى مجالس ثعلب: "كتب معاوية بن أبى سفيان إلى زياد: إذا جاءك كتابى هذا فأوفد إلىَّ ابنك عبيد الله. فأوفده عليه فما سأله عن شىء إلا أنفده حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئاً، قال: فما منعك من روايته؟ قال: كرهت أن أجمع كلام الله، وكلام الشيطان فى صدرى. قال: أغرب. والله لقد وضعت رجلى فى الرّكاب يوم صفين مراراً ما يمنعنى من الانهزام إلا أبيات ابن الإطنانة حيث يقول:

أبت لى همّتى وأبى بلائى	وأخْذى الحمدَ بالثمن الرَّبيح
وإقحامى على المكروه نفسى	وضربى هامة البطل المُشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت	مكانك تُحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثرَ صالحاتٍ	وأحمىَّ بَعْدُ عن عرض صحيح

فقد كانت نظرات معاوية بن أبى سفيان وتأمله لتلك الأبيات التى قالها عمرو بن الإطنانة بما تحمل من معانٍ عظيمة سبباً فى عدم فراره من المعركة وثباته فى القتال.

وقد ذُكر: " أن الحارث بن نوفل دخل بابنه عبد الله إلى معاوية، فقال: ما علمت ابنك؟ قال: القرآن. والفرائض. فقال: زده من

---

(1) العمدة لابن رشيق جـ29/1. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت – لبنان – الطبعة الرابعة – 1972م.

فصيح الشعر فإنه يفتح العقل؟ ويفصح المنطق، ويطلق اللسان، ويدل على المروءة والشجاعة"[1].

وهذا يدلنا دلالة واضحة على دقة نظرات الخليفة الأدبية. حتى استطاع أن يتبين ما للشعر من أثر فعال فى تربية الأبناء على المروءة والشجاعة. وقد كانت تلك هى الصفات المحببة للعرب فى ذلك الوقت.

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط وإنما استطاع الخليفة من خلال تلك النظرات الثاقبة الواعية أن يتبين ما للشعر من دور فى تفتح العقل وطلاقة اللسان وتعلم المنطق وحسن البيان، ولذا يجب تعلمه جنباً إلى جنب كالقرآن والفرائض.

(2) والأمر فى الحقيقة لا يقتصر على معاوية دون غيره من خلفاء بنى أمية، فهذا هو: الخليفة يزيد بن عبد الملك:-

وقد قدم عليه كثير عزة، وكان " قد مدحه بقصائد جياد مشهورة فأعجب بهن يزيد. وقال له: احتكم قال: وقد جعلت ذلك إلىَّ! قال: نعم: قال:مائة ألف، قال: ويحك! مائةَ ألف!! قال: على جود أمير المؤمنين أُبقى أم على بيت المال؟ قال: ما بىَ استكثارها، ولكنى أكره أن يقول الناس أعطى شاعراً مائة ألف".[2]

---

(1) المصون فى الأدب. تحقيق عبد السلام محمد هارون، ص 133، مكتبة الخانجى بالقاهرة – الطبعة الثانية – 1402هـ – 1982م.

(2) طبقات فحول الشعراء لابن سلام . جـ2/543.

وهذا يدلنا على مدى استحسان الخليفة لتلك القصائد وإعجابه الشديد بها ، ولا يكون ذلك إلا بعد نظره وتأمله لما تحمله هذه القصائد من معانٍ عظيمة ، تُعلى من شأن الممدوح وترفع من قدره ، والإنسان بطبعه يحب الثناء والمديح. ولذلك فهو يطلب من شاعره أن يكون حكماً لجائزة تلك القصائد التى نالت إعجاب الخليفة ، فيحكم الشاعر بمائة ألف، فيعطيها له الخليفة دون أن يستكثرها.

وقد كانت بنو أمية لا تقبل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثى. قيل ولم ذاك؟ قيل: لأنها تدل على مكارم الأخلاق.

وقيل لإعرابى ما بال المراثى أجود أشعاركم؟ قال: لأنا نقول وأكبادنا تحترق "[1].

وهذا يدلنا على تذوق بنى أمية للشعر وخاصة الرثاء منه، فهو من أجود الشعر لأن الشعراء يقولونه وأكبادهم تحترق من شدة الألم على الذين يرثونهم. فالرثاء خاصة لا نصيب للكذب والرياء فيه بخلاف الأغراض الأخرى من الشعر.

(3) ويروى صاحب الأغانى:

" أن النُّصَيْب كان إذا قدم على هشام بن عبد الملك أخلى له مجلسه واستنشده مراثىَ بنى أمية فإذا أنشده بكى وبكى من معه، فأنشده يوماً قصيدة له مدحه بها يقول فيها :

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ جـ320/2. بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . دار الجيل – بيروت.

إذا استبقَ الناسُ العلا سبقْتهُمُ   يمينُك عَفْواً ثم صلَّتْ شِمالُها

فقال له هشام: يا أسود بلغت غاية المديح فسلنى، فقال: يدك بالعطية، أجود وأبسط من لسانى بمسألتك، فقال: هذا والله أحسن من الشعر، وحباه وكساه وأحسن جائزته"[1].

فالخليفة هشام بن عبد الملك تأمل ما قاله الشاعر نصيب وأعجب به سواء كان شعراً أو نثراً، ولذلك أحسن جائزته وحباه وكساه.

وذكر القالى فى أماليه:

" قدم وفد على أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك وفيهم رجل من قريش يقال له إسماعيل بن أبى الجهم وكان أكبرهم سناً وأفضلهم رأياً وحلماً، فقام متوكئاً على عصا. وقال: يا أمير المؤمنين إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطنبت، وأثنت عليك فأحسنت، والله ما بلغ قائلهم قدرك، ولا أحصى مثنيهم فضلك، أفتأذن لىّ فى لكلام؟ قال:تكلم، قال: أفأوجز أم أطنب؟ قال: بل أوجز، قال: تولاك الله أمير المؤمنين بالحسنى وزينك بالتقى، وجمع لك خير الآخرة والأولى، إن لىّ حوائج أفأذكرها؟ قال: نعم، قال: كبرت سنى، وضعفت قواى، واشتدت حاجتى، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى، وينفى فقرى، قال: يا ابن أبى الجهم، ما يجبر كسرك، وينفى فقرك. قال: ألف دينار، وألف دينار، وألف

(1) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى. جـ1/338: 389.

دينـار، قـال: هيهـات يـا ابـن أبـى الجهـم!، بيـت المـال لا يحتمـل هـذا، قال: كأنك آليت يا أمير المؤمنين أن لا تقضى حاجة مقامى هذا، قال: ألـف دينـار لمـاذا؟ قـال: أقضـى بهـا دينـاً قـد فـدحنى حملـه، وأرهقنـى أهله، قال: نعم المسلك أسلكتها، ديناً قضيت، وأمانة أديت، قال: وألـف دينـار لمـاذا؟ قـال: أزوج بهـا مـن أدرك مـن ولـدى فأشـد بهـم عُضـدى، ويكثـر بهـم عـددى، قـال: ولا بـأس. أغضضـت طرفـاً وحصنت فرجاً وأمرت نسلاً، وألف دينار لماذا؟ قال: اشترى بها أرضاً فأعود بفضلها على ولدى. وبفضل فضلها على ذوى قراباتى. قال: ولا بأس، أردت ذخراً، ورجوت أجراً، ووصلت رحماً. قد أمرنا لك بها. فقـال: الله المحمـود علـى ذلـك وجـزاك الله يـا أمـير المـؤمنين والـرحم خيراً. فقال هشام: تا الله ما رأيت رجلاً ألطف فى سؤال، ولا أرفق فى مقال من هذا. هكذا فليكن القرشى".[1]

إننـا أمـام قطعـة أدبيـة أجـاد صـاحبها فـى بيـان مـا يريـد وتوضيحه مما جعل الخليفة هشام بن عبد الملك يُعجب بحسـن بيانـه، وجـودة منطقـه ولطافـة مطلبـه، ولا يكـون ذلـك إلا مـن متأمـل واع وأديب راق يتذوق العبارة، ويفهم بالتلميح والإشارة، يُحب الإيجاز فى الكلام، فهو أعلى درجات البلاغة، ولذلك ما كان من الخليفة إلا الثنـاء عليـه، وقضـاء حاجتـه وتلبيـة رغبتـه متمنيـاً أن يكـون كـل القرشيين مثله.

---

(1) الأمالى للقالى. جـ1/145. الطبعة الثالثة – مطبعة السعادة بمصر، 1373هـ– 1953م.

وقد كان هشام بن عبد الملك عالماً بالأدب محباً لأهله. وقد سأل مرة خالد بن صفوان عن رأيه فى فحول عصره، جرير والفرزدق والأخطل، فقال خالد: أما أعظمهم فخراً وأبعدهم ذكراً، وأحسنهم عذراً وأسيرهم مثلاً وأقلهم غزلاً، البحر الطامى إذا ذخر، والسامى إذا خطر، الفصيح اللسان، الطويل العنان، فالفرزدق ... وأما أحسنهم نعتاً، أمدحهم بيتاً، ،أقلهم فوتا، الذى إذا هجا وضع، وإذا مدح رفع، فالأخطل... وأما أغزرهم بحراً، وأفهمهم شعراً، وأكثرهم ذكراً، الأغر الأبلق الذى إن طلب سبق، وإن طُلب لم يلحق، فجرير. وكلهم ذكىُّ الفؤاد، رفيع العماد، وارى الزناد![1]

ولا ريب أن كانت تلك النظرات الفاحصة والتأملات الواعية الدقيقة من هؤلاء الخلفاء من أثر تذوقهم الأدبى والنقدى.

فقد جعلوا جُل اهتمامهم ورعايتهم للحركة الأدبية، ففتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء، وأغدقوا عليهم فى العطاء. **وقد يكون السبب فى ذلك راجعاً لأمرين أساسيين:**

الأول: إن حكم الأمويين بُنى على الضغط والقهر فكانت حاجتهم إلى الشعراء والقصاص أشد لأنهم هم الذين يبشرون بهم ويشيدون بذكرهم ويقومون فى مقام الصحافة لأحزابها

---

(1) راجع دراسات فى نقد الأدب العربى. للدكتور بدوى طبانة. ص 108: 109، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

ومن أجل ذلك لم يكن ينال الحظوة عند خلفاء بنى أمية إلا من كان مادحاً لهم.

الثانى: أن نزعة الأمويين نزعة عربية جاهلية لا تتلذذ من الفلسفة، ولا من بحث دينى عميق، وإنما يلذ لها الشعر الجيد والخطبة البليغة والحكمة الرائعة."[1]

وقد حاولت أن ألتزم الاقتضاب فى أثناء معالجتى لما كان من نظرات أدبية وتأملات نقدية لخلفاء بنى أمية حرصاً منى على عدم تضخم البحث فضلاً عن الرغبة فى الارتباط والملازمة لموضوع الدراسة، حيث كان الخليفة عبد الملك بن مروان على رأس هؤلاء الخلفاء جميعاً فى ذلك المجال. وفيما ذكرت إشارة واضحة على شيوع الذوق الأبى الرفيع والحس النقدى المرهف عند هؤلاء القوم عامة.

---

(1) فجر لإسلام لأحمد أمين ص260:261. الهيئة المصرية العامة للكتاب.



ثانيا - المحور الأول
مكانة الخليفة
عبد الملك الأدبية

لقد كانت للخليفة عبد الملك بن مروان[1] مكانة مرموقة ومنزلة أدبية عالية، وذلك لما تميزت به شخصيته منذ نشأته ونعومة أظفاره، وحتى أصبح خليفة المسلمين وعلماً بارزاً من أعلام الدولة الأموية، فهو يُعد بحق المؤسس الثانى للدولة الأموية بعد مؤسسها الأول معاوية بن أبى سفيان.

فقد تولى عبد الملك الحكم فى ظروف صعبة وأوضاع حرجة، حيث كانت الدولة تتمزقها الخلافات والمشاحنات السياسية والمذهبية من كل جانب، حتى أشرفت الدولة على الانهيار، فحاول عبد الملك أن يخرجها من وهدتها، وينشلها من عثرتها بعد أن قضى على العديد من الفتن والثورات.

وقد عُرف خلفاء بنى أمية بمجالسهم الأدبية التى كانت تُعد مظهراً من مظاهر احتفاظهم بخصائص عروبتهم " وأهم تلك الخصائص حبهم للشعر وولعهم بسحر البيان ودرايتهم بتذوقه وقدرتهم على نقده وتحسس جوانب الجمال فيه، وتعرفهم أسباب

---

(1) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية. "أبو الوليد" الأموى – أمير المؤمنين. أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية. ولد سنة ست وعشرين وبويع بعهد من أبيه فى خلافة ابن الزبير، فلم تصح خلافته إلى أن قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين فصحت خلافته من يومئذ. مات سنة ست وثمانين فى شوال. وبذلك يكون قد ملك إحدى وعشرين سنة "65-86 هـ". راجع فى ذلك: " مروج الذهب للمسعودى جـ71/2، البداية والنهاية لابن كثير جـ83/5، وتاريخ الخلفاء للسيوطى صـ256. وتاريخ الإسلام للذهبى جـ50/3".

ضعفه بفطرتهم السليمة وحسهم المرهف وأنبههم فى ذلك وأجدرهم بالتنويه. عبد الملك بن مروان الذى كان ولوعاً بتتبع الكلام، قادراً على أن يضع يده على مواطن الضعف أو الخطأ فى الأشعار"[1].

ومن ثم يتضح لنا أن عبد الملك بن مروان هو أجدر خلفاء بنى أمية وأقدرهم على تذوق الشعر ونقده، وتحسس جوانب الجمال فيه، ومعرفة أسباب ضعفه وذلك لفطرته السليمة وحسه المرهف، ومن ثم " تميزت شخصية عبد الملك بن مروان قبل توليه منصب الخلافة وبعدها، بالتقوى والورع، والاهتمام الكبير بالقرآن والسنة، كما عُرف عنه سعة العلم والمعرفة باللغة والأدب، والشعر والفصاحة والمنطق."[2]

ولذلك كان لزاماً علينا أن نفصل القول فى بيان مكانته الأدبية قبل توليه منصب الخلافة وبعدها حتى يتضح لنا مدى تذوقه الأدبى وحسه المرهف، شافعين ذلك ببعض آثاره الأدبية التى نستدل من خلالها على تذوقه الأدبى، مشيرين إلى موقفه من الشعر والشعراء، وبذلك تتضح لنا مكانته الأدبية التى لايدانيه فيها غيره من خلفاء بنى أمية.

---

(1) دراسات فى نقد الأدب العربى. للدكتور بدوى طبانة، ص 105: 106.

(2) الخلافة الأموية للدكتور عبد الأمير عيد حسين دكن. ص 49:45، بيروت، 1973م. وراجع أيضاً: عبد الملك بن مروان للدكتور محمد ضياء الدين الريس. ط2، القاهرة، 1969م.

1 – قبل توليه الخلافة:

" أربى غلام من بنى على[1]، على عبد الملك، وعبد الملك يومئذ غلام، فقال له كهل من كهولهم لما رآه ممسكاً عن جواب المُرْبىِّ عليه: لو شكوتهَ إلى عمه انتقم لك منه. قال: أمسك يا كهل؛ فإنى لا أعُدُّ انتقام غيرى انتقاماً."[2]

وذلك يدل على ما اتصف به عبد الملك من رجاحة عقل، منذ كان غلاماً. ويؤيد ذلك أيضاً ما ذكر من أن: " ثلاثة حمقى كانوا أخوة ثلاثة عقلاء، والأم واحدة: علىّ وعقيل، وأمهما فاطمة بنت أسد بن هاشم، وعتبة ومعاوية ابنا أبى سفيان وأمهما هند بنت عتبة بن ربيعة، وعبد الملك ومعاوية ابنا مروان وأمهما عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص".[3]

وقد وصفه معاوية بن أبى سفيان بكمال المروءة وعلل عمرو بن العاص ذلك بأنه تخلق بأخلاق أبيه وترك أخلاقاً أخرى.

" فروى أنه دخل على معاوية، فسلم وجلس، فلم يلبث أن نهض فقال معاوية: ما أكمل مروءة هذا الفتى! فقال عمرو: إنه تخلق أخلاقاً ثلاثاً: أخذ بأحسن البشر إذا لقى، وبأحسن الحديث

---

(1) أربى عليه أى زاد عليه فى الكلام والجدل. وبنو على هؤلاء هم بنو على بن بكر بن وائل.

(2) البيان والتبيين للجاحظ جـ321/2.

(3) المصدر السابق، جـ324/2.

إذا حَدث، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأيسر الأمْرَيْن إذا خُولف، وترك مزاح من لا يثق بعقله، وترك الكلام فيما يُعتذر منه، وترك مخالطة لئام الناس."[1]

ولا شك أن ما وصفه به كل من الخليفة معاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص، رضى الله عنهما، من صفات اتصف بها وهو غلام. يدلنا على أن تلك الصفات الأدبية القيمة التى اتصف بها كانت متأصلة فيه منذ صغره ولابد لمن نشأ على هذه الصفات أن تكون له مكانته الأدبية العالية. مصداقاً لقول القائل:

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ فينا   على ما كان عوّده أبوه

فقد كان عبد الملك فصيحاً، يعيب اللحن فى اللغة، وجاء عنه قوله: اللحن هُجْنَةٌ على الشريف والعُجب آفة الرأى. وكان يقول: اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرىّ فى الوجه."[2]

وجاء فى هامش البيان والتبيين: كلامُ عبد الملك هذا ساقه صاحب العقد الفريد فى "2: 479"، بلفظ "الإعراب جمال للوضيع، واللحن هجنة على الشريف".

وفى العقد " 2: 478". وقال عبد الملك بن مروان: اللحن فى الكلام أقبح من التفتيق فى الثوب والجدرى فى الوجه".

---

(1) المصون فى الأدب، ص137.

(2) البيان والتبيين للجاحظ جـ2/216.

وفى عيون الأخبار " 2: 158" " وقال مسلمة بن عبد الملك: اللحن فى الكلام أقبح من الجدرى فى الوجه. وقال عبد الملك: "اللحن أقبح من التفتيق فى الثوب النفيس".[1]

وخلاصة هذه الأقوال تدلنا على كراهية عبد الملك بن مروان للحن فهو هجنة على الشريف. ولذلك كان تشبيهه للحن فى الكلام بأنه أقبح من التفتيق فى الثوب النفيس وأقبح من الجدرى فى الوجه، ذلك المرض اللعين الذى يجعل الناس تفرّ من صاحبه، فعبد الملك يفرّ من اللحن ويبعد عنه حفاظاً على مكانته الأدبية التى يتبؤها.

ويدلنا على مكانة عبد الملك الأدبية، ما كان عليه ذلك الفتى وهو شاب صغير حيث اتصف منذ نشأته بصفات تدلنا على تبوئه مكانة أدبية عظيمة، حيث كان قبل توليه الخلافة من العباد الزهاد الملازمين للمسجد التالين لكتاب الله.

يقول نافع: " لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أنسك، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان."، ويقول عنه الأعمش: "كان فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب، وعروة، وقصيبة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل الإمارة."[2]

---

(1) راجع المصدر السابق هامش 4؛ 5 جـ2/216.

(2) البداية والنهاية لابن كثير جـ84/5. الطبعة الأولى، دار الغد العربى، القاهرة.

وقيل لابن عمر رضى الله عنهما: إنكم معشرٌ أشياخ قريش يوشك أن تنقرضوا، فمن نسأل بعدكم؟ فقال: إن لمروان ابناً فيها فاسألوه، وقال سحيم مولى أبى هريرة رضى الله عنه. دخل عبد الملك– وهو شاب– على أبى هريرة – رضى الله عنه – فقال أبو هريرة: هذا يملك العرب"[1]

والنصوص التى سقناها آنفاً تحمل بين طياتها شهادة أربعة من رجال هذا العصر. لذلك الفتى – عبد الملك بن مروان – فيشهد له نافع بفقهه وطلبه للعلم وتشميره له وقراءته لكتاب الله.

والأعمش يشهد له بأنه أحد فقهاء المدينة الأربعة فى ذلك الوقت، أما ابن عمر فإنه يجعله فى المرتبة التالية لأشياخ قريش، فإذا انقرضوا، كانت له مكانة هؤلاء الأشياخ. وأبو هريرة يتوقع له أن يملك العرب.

ولا شك أن شهادة هؤلاء الرجال وهم من هم فى ذلك الوقت لعبد الملك ابن مروان لم تأت من فراغ وإنما جاءت لمكانته وعظم قدره بينهم.

ويقول عنه الشعبى: ما جالست أحداً إلا وجدت عليه فضلاً إلا عبدالملك بن مروان، فإنى ما ذكرته حديثاً إلا وزادنى فيه، ولا شعراً إلا وزادنى فيه، وكان عبد الملك بحكم ثقافته هذه بليغاً

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطى. ص 257 بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت.

فصيحاً... وكان يحفظ الشعر ويرويه ويستسيغه ... وكان حكيماً أجرى كلامه مجرى المثل."[1]

وقالت أم الدرداء لعبد الملك: ما زلت أتخيل هذا الأمر فيك منذ رأيتك. قال: وكيف ذاك؟ قالت: ما رأيت أحسن منك محدّثاً ولا أعلم منك مستمعاً.[2]

وهذه الشهادة من الشعبى، صاحب المكانة الأدبية الرفيعة فى ذلك العصر، وتفضيله لعبد الملك على نفسه وتقديمه له، وحكمه عليه بأنه كان بليغاً، فصيحاً، يحفظ الشعر ويرويه ويستسيغه، وكان حكيماً، فجرى كلامه مجرى المثل لحسنه وصيرورته على الألسنة – تدلنا دلالة قوية على مكانة عبد الملك الأدبية، ويدلنا على تلك المكانة أيضاً ما وصفته به أم الدرداء من أنها لم تر أحسن منه مُحَدّثاً، ولا أعلم منه مستمعاً.

وعن ابن عمر أنه قال: ولد الناس أبناء وولد مروان أبا – يعنى عبدالملك، ورآه يوماً وقد ذُكر اختلاف الناس، فقال: لو كان هذا الغلام اجتمع الناس عليه – وقال عبد الملك: كنت أجالس بريدة بن الحصيب فقال لى يوماً: يا عبد الملك إن فيك خصالاً، وإنك لجدير أن تلى أمر هذه الأمة، فأحذر الداء، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الرجل ليُدْفَع عن باب الجنة بعد أن

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص 258. وراجع أيضاً: زعماء الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ص 230. مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، 1980م.

(2) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص 258.

ينظر إليها على محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق."[1]

وقال يحيى الغسانى: لما نزل مسلم بن عقبة المدينة دخلت مسجد النبى عليه الصلاة والسلام، فجلست إلى جنب عبد الملك، فقال لى عبد الملك: أمن هذا الجيش أنت؟ قلت نعم، قال: ثكلتك أمك! أتدرى إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد فى الإسلام وإلى ابن حَوَارىّ النبى عليه الصلاة والسلام وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من حَنَّكَه النبى صلى الله عليه وسلم. أما والله إن جئته نهاراً وجدته صائماً، ولئن جئته ليلاً لتجدنّه قائماً، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله جميعاً فى النار."[2]

فعبد الملك بن مروان يعرف لعبد الله بن الزبير مكانته وقدره عند الله وعند المسلمين. ولا يعرف الفضل إلا ذووه. ولكننا سرعان ما نجده يتغير بعد توليه الخلافة، فيكون قتل عبد الله بن الزبير على يديه بعد أن يُسير إليه جيشاً كبيراً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى. وقال بكر بن عبد الله المزنى: أسلم يهودى اسمه يوسف. وكان قرأ الكتب فمر بدار مروان، فقال: ويل لأمة محمد من أهل هذه الدار، فقلت له: إلى متى؟ قال: حتى تجئ رايات سود من قبل خرسان. وكان صديقاً لعبد الملك بن مروان، فضرب يوماً على منكبه، وقال: اتق الله فى أمة محمد إذا ملكتهم، فقال: دعنى ويحك ما شأنى وشأن ذلك؟ فقال: اتق الله فى أمرهم، قال:

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ84/5.

(2) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص 258: 259.

وجهز يزيد جيشاً إلى أهل مكة فقال عبد الملك: أعوذ بالله ! أيبعث إلى حرم الله؟ فضرب يوسف منكبيه، وقال: جيشك إليهم أعظم."[1]

وإن صحت هذه الرواية التى جاءت عن ذلك اليهودى لما عنده من معرفة للكتب السابقة وما جاء فيها، فإنها تدل على تنبوء من قرأ تلك الكتب ببعض الأحداث التى قد تقع مستقبلاً، ومثل هذه الأمور قابل للتصديق أو التكذيب، ولكن الذى يعنينا هو وقوع بعض هذه الأحداث فعلاً.

ومن خلال تلك النصوص التى ذكرناها عند الحديث عن عبد الملك بن مروان قبل توليه الخلافة. يتضح لنا ما كان يتصف به ذلك الفتى الأموى من حفظ للشعر وحب له، ومن ثم فهو يستسيغه ويرويه، وكذلك اتصافه بالعقل الراجح والفطنة والذكاء. بالإضافة إلى أنه عُرف بزهده وورعه وتقواه، وتفقهه فى الدين وتنسكه وحفظه للقرآن، ومعرفته لمكانة الناس وأقدارهم. فهو يعرف لأهل مكة مكانتهم فهم فى حرم الله الآمن. وكذلك يعرف لابن الزبير قدره وتقواه وورعه ومن ثم فهو لا يرضى عن قتاله. ومحاربته. وكذلك تبين لنا بعض النصوص ما كان يتوقع له من أنه سوف يلى أمر هذه الأمة، ولذلك يحذرونه من البطش وسفك الدماء، وهكذا تتضح لنا مكانة عبد الملك الأدبية التى استطاع أن يحققها قبل توليه الخلافة.

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص 258.

وكيف أن كل هذه الأمور تضافرت فى تكوين تلك المكانة الأدبية الرفيعة التى يتصف صاحبها بتذوقه الأدبى وبحسه المرهف.

وتلك هى مكانة عبد الملك الأدبية التى كان عليها قبل توليه الخلافة. وقد تجلت تلك المكانة الأدبية بآثارها المفيدة فى مظهر آخر من مظاهر حياة عبد الملك، وقد يكون هذا المظهر ضمنى ولكنه يجلى لنا بوضوح مكانته الأدبية وتذوقه الأدبى وحسه المرهف. وهذا المظهر يتجلى فى اختيار عبد الملك لمؤدب أبنائه حيث كان يتخير هؤلاء المؤدبين، وكذلك يختار لهم المادة الأدبية التى كانت نابعة من تذوقه للشعر ومعرفته لأفضاله، فهو يريد أن يعكس هذه الصورة الأدبية التى هو عليها ليتحلى بها الأبناء ويتربوا عليها، وقد تجلى ذلك بوضوح من سلوكه وتوجيهه لبعض هؤلاء المؤدبين حيث كان يحثهم على تأديب أولاده وتعليمهم أصول الدين وارتشاف معالم العلم والأدب والشعر واللغة. والتحلى بمكارم الأخلاق، وقول الصدق، وصلة الأرحام. يقول: " علم بنىّ القرآن وحذقهم بمكارم الأخلاق وحثهم على صلة الأرحام، ووقرهم فى الملأ وأخفهم فى السر، فإن الأدب أملك بالغلام من الحسب وتهددهم بىّ، وأدبهم دونى، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهموه، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة الفهم."[1]

---

(1) أنساب الأشراف للبلاذرى جـ196/11 – مخطوطة.

وبذلك كان عبد الملك يرسم الطريق ويوضحه أمام مؤدب أبنائه. ومن ثم نجده يقول لمعلم ولده: " إنى قد اخترتك لتأديب ولدى وجعلتك عينى عليهم وأمينى. فاجتهد فى تأديبهم، ونصيحتى فيما استنصحك فيه من أمرهم علّمهم كتاب الله – عز وجل – حتى يحفظوه، وفقّهم على ما يبيَن الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه، وخُذْهم من الأخلاق بأحسنها، ومن الآداب بأجمعها، ورَوهم من الشعر أعفّه ومن الحديث أصدقه."[1]

ويقول عبد الملك: " تعلموا الشعر ففيه محاسن تُبْتَغى ومساوئ تُتَّقى"[2]

وعندما دفع عبد الملك بعض ولده إلى الشعبى ليؤدبهم قال له: " علّمهم الشعر يَمْجُدوا ويَنْجُدوا"[3].

ومن خلال هذين النصين الأدبيين وما سبق من نصوص يتضح لنا ما لتعلم الشعر من أثر عظيم على متعلمه. ولعله يكون فى تلك الشواهد والنصوص التى ذكرناها ما يدلنا على تذوق عبد الملك بن مروان الأدبى وحبه للشعر ومعرفته لمكانته وأهميته.

---

(1) عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، لمحمد ضياء الدين الريس. ص 249: 250.

(2) محاضرات الأدباء جـ80/1 للراغب الصبهانى، بيروت.

(3) الأدب المفرد للبخارى ص 381، حققه محمد هشام البرهانى، المطبعة العصرية، أبو ظبى، 1401هـ–1981م.

2- بعد توليه الخلافة:

بعد أن تولىَّ عبد الملك بن مروان الخلافة نجد أن حاله قد تغير فأصبح بعد ما عُرف بزهده وتقواه وورعه، يُعرف بجبروته وقسوته على كل من يخالفه، وكذلك بُعده عن الدين والنسك والعبادة وحبه لسفك الدماء، وانتهاك حرمات الصحابة، وإطلاقه ليد عماله وولاته يؤدبون كل من يحاول الخروج عليهم. فقد كان لعبد الملك إقدام على سفك الدماء. وكان حازماً فطناً، فهما سائساً لأمور الدنيا فهو لا يكل أمر دنياه إلى غيره.

وذُكر: " أن عبد الملك كان يجلس فى حلقة أم الدرداء فى مؤخرة المسجد بدمشق. فقالت له: بلغنى أنك شربت الطلاء بعد النسك فقال: أى والله والدماء أيضاً قد شربتها. ثم جاءه غلام كان قد بعثه فى حاجة. فقال ما حسبك، لعنك الله؟ فقالت أم الدرداء: لاتفعل يا أمير المؤمنين، فإنى سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يدخل الجنة لعان."

وقيل لسعيد بن المسيب: إن عبد الملك بن مروان قال: قد صرت لأفرح بالحسنة أعملها، ولا أحزن على السيئة أرتكبها، فقال سعيد: الآن تكامل موت قلبه.[1]

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ5/89: 90.

وذكر أنهم: " قدّموا رجلاً من الخوارج إلى عبد الملك بن مروان لتُضرب عنقُه، ودخل على عبد الملك ابن له صغير، قد ضربه المعلم، وهو يبكى، فهمَّ عبد الملك بالمعلم. فقال له الخارجى: دعوه يبكى فإنه أفتحُ لجرْمه، وأصحُ لبصره، وأذهبُ لصوته، فقال عبد الملك: أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟ قال الخارجى: ما ينبغى لمسلم أن يشغله عن قول الحق شىء! فأمر بتخلية سبيله".[1]

والذى يعنينا فى هذا الموقف هو تذوق الخليفة عبد الملك بن مروان لتلك العبارات الأدبية التى قالها ذلك الرجل وكذلك فهمه الدقيق لمعانيها ومدلولاتها، ومن ثم قد يكون ذلك سبباً من الأسباب التى أدت إلى عفوه عن قائلها.

وذُكر أنه: " كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يعظم أمر قطريٍّ بن الفجاءة المازنى. فكتب إليه عبد الملك: أوصيك بما أوصى به البكري زيداً فقال الحجاج لحاجبه: نادِ فى الناس: من يخبر الأمير بما أوصى به البكرى زيداً فله عشرة آلاف درهم. فقال رجل للحاجب: أنا أخبره فأدخله عليه فقال له: ما قال البكرى لزيد؟ قال: قال لابن عمه زيد – والشعر لموسى بن جابر الحنفى:

أقول لزيدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنهم ... يَرَوْن المنايا دون قتلك أو قتلى
فإن وضعوا حرباً فضعها وإن أبوْا ... فشُبَّ وقود الحرب بالحطب الجزْل
فإن عَضَّتِ الحربُ الضَّروسُ بنابها ... فعُرضَةُ نار الحربِ مثلُك أو مثلى

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ جـ1/259.

فقال الحجاج: صدق أمير المؤمنين: عرضه نار الحرب مثلى أو مثله."[1]

فالخليفة هنا يكتب لأحد ولاته وهو الحجاج بن يوسف ويوصيه بما أوصى البكرى زيدا.

فالخليفة إذن يعرف ذلك الشعر الذى قاله البكرى لابن عمه زيد ويتذوقه ويفهم معانيه ودلالاتها ولا يريد أن يعلمها للناس. والحجاج يسأل عما أوصى به البكرى ابن عمه زيد ويعطى لمن يخبره به عشرة آلاف درهم. وهنا يكون لفهم الشعر وتذوق معانيه دورٌ مهمٌ بين الخليفة وأحد ولاته فى تنفيذ ما يأمره به.

روى أن أنس بن مالك كتب إلى عبد الملك يشكو الحجاج، ويقول فى كتابه " لو أن رجلاً خدم عيسى ابن مريم أو رآه أو صحبه، تعرفه النصارى أو تعرف مكانه – لهاجرت إليه ملوكهم، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة ولعرفوا ذلك له.

ولو أن رجلاً خدم موسى أو رآه، تعرفه اليهود، لفعلوا به من الخير والمحبة، وغير ذلك ما استطاعوا. وإنى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، رأيته، وأكلت معه ودخلت وخرجت وجاهدت أعداءه، وإن الحجاج قد أضرّ بى وفعل وفعل.

---

(1) ذيل الأمالى للقالى، ص 72.

قال أخبرنى من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب، وهو يبكى وبلغ به الغضب ما شاء الله. ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ فجاء إلى الحجاج فقرأه فتغير، ثم قال إلى حامله: انطلق بنا إليه نترضّاه.(1)

وهذا ولا شك يدلنا على فهم عبد الملك وتقديره لمكانة أنس بن مالك رضى الله عنه، وتذوقه لعباراته وفهم مدلولاتها، وما تنم عنه من معانٍ عبر بها أنس رضى الله عنه عن الألم الشديد الذى ألحقه به الحجاج وعدم مراعاته لصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وخدمته له.

وذُكر: أنه " لما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان تاقت نفسه إلى محادثة الرجال والإشراف على أخبار الناس فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشعبى، فلما حُمل إليه ونادمه وحظى عنده، قال له: يا شعبىُّ، لا تساعدنى على ما قبح، ولا تردّ علىَّ الخطأ فى مجلسى، ولا تكلفنى جواب التشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية، ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى، وكلمنى بقدر ما استطعمك، واجعل بدل المدح لىّ صوابَ الاستماع منى، واعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول، وإذا سمعتنى أتحدث فلا يفوتنّك منه شىء وأرنى فهمك فى طرفك وسمعك، ولا تجهد نفسك فى تطرية جوابى ولا تستدع بذلك الزيادة فى كلامى، فإن أسوأ الناس حالاً من استكدّ الملوك بالباطل وإن أسوأ حالاً منهم من استخف بحقهم.

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ5/87.

واعلم يا شعبى أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ويسقط حق الحرمة، فإن الصمت فى موضعه ربما كان أبلغ من المنطق فى موضعه وعند إصابته فرصة." [1]

ويتضح لنا مما سبق أن الخليفة عبد الملك بن مروان كان تواقاً لمحادثة الرجال ومنادمتهم وخاصة الأدباء ومن ثم لا يصلح له إلا الشعبى، فلما حمل إليه وحظى عنده أراد أن يخبره ببعض الآداب التى يجب أن يراعيها عند منادمته حتى يلتزم بها الشعبى وتكون دافعاً لدوام المنادمة. وقد تنوعت تلك الآداب وتعددت مراميها حتى تكون الفائدة المرجوة منها أشمل وأعظم وقد ختمها بتلك الحكمة وهى أن الصمت فى موضعه ربما كان أبلغ من المنطق فى موضعه. ولاشك أن صدور تلك القطعة الأدبية الرائعة عن الخليفة بما تحمل من معانٍ رائعة وتوجيهات وإرشادات تحمل بين طياتها إطاراً عاماً لمخاطبة الملوك والتأدب معهم، تدل بحقٍ على مكانة الخليفة الأدبية وفهمه الدقيق وحكمته البالغة، ولا شك أن هذا الذى جاء من الخليفة عبد الملك بن مروان يتفق كثيراً مع ما جاء من الناقد ابن رشيق القيروانى حيث يقول:

"وسبيل الشاعر– إذا مدح ملكاً– أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح. وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية، غير مبتذلة ولاسوقية ويجتنب – مع ذلك – التقصير والتجاوز

---

(1) مروج الذهب للمسعودى، جـ71/2: 72.

والتطويل، فإن للملك سآمة وضجراً ربما عاب من أجلها مالا يعاب. وحرم من لا يريد حرمانه." [1]

ومما يدلنا أيضاً على مكانته الأدبية ما كان يتمتع به من حب الاستماع لمن يحدثه ويقدم ذلك على الأكل والشرب . فقد روى عن الشعبى قال: ربما حدثت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى. وقد هيأ اللُّقمةَ فيمسكها فى يده مقبلاً علىَّ، فأقول: أَجِزْها يا أمير المؤمنين، فإن الحديث من ورائها، فيقول: الحديث أشهى إلىَّ منها.

قال: وكان من كلامهم: ما رأيت أحداً أطرَّ ضرساً ولا أسرع إحارةً للرغيف منه." [2]

وهذا يدلنا على ما كان عليه الخليفة من حب للأدب والاستماع إليه وإلى محدثه رغبة فى الاستزادة منه وتقديم ذلك على الأكل والشرب.

يقول عبد الملك: " والناس إلى شىء من الأدب أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التى بها يتعاورون الكلام، ويتعاطون البيان ويتهادون الحكمة ويستخرجون غوامض العلم، ويجمعون ما تفرق منها، فإن الكلام قاض يحكم بين الخصوم – ضياء يجلو الظلم وحاجة

(1) العمدة لابن رشيق القيروانى جـ128/2.
(2) ذيل الأمالى والنوادر للقالى، ص 81.

الناس إلى مواده حاجتهم إلى مواد الأغذية".[1]

فهذا النص الأدبى الذى صدر عن الخليفة يدل على معرفته بقيمة الأدب وأهميته ومدى حاجة الناس إليه، فهو بالنسبة إليهم كالغذاء الذى لا يستطيع أى إنسان أن يعيش بدونه أو يستغنى عنه، فهو يقيم ألسنتهم كما يقيم الغذاء بنيانهم ولذا فهم يتعاطون البيان ويتهادون الحكمة، وهو القاضى الذى يحكم بين الخصوم والضياء الذى يجلو الظلم".

وهكذا يتضح لنا أن مكانة عبد الملك بن مروان الأدبية لم تتغير كثيراً عما كانت عليه قبل توليه الخلافة، يدلنا على ذلك شوقه لمنادمة الأدباء ومن ثم وقع اختياره على الشعبى لما له من مكانة أدبية مرموقة فى ذلك الوقت. وكذلك تذوقه وفهمه وتقديره لما يسمع من عبارات أدبية تؤثر فى النفس لشدة جمالها الأدبى وأيضاً لتذوقه النقدى الذى جاء مطابقاً للكثير مما رآه النقاد فى العصور التالية.

وإنما الذى تغير بعض الشئ هو الجانب الأخلاقى والدينى عند عبد الملك، وقد يكون عبد الملك معذوراً فى ذلك لأن للسلطان شهوة تغير النفوس وتبدل الطبائع. كما أن الظروف التى تولى فيها عبد الملك الخلافة كانت صعبة ودقيقة، وتحتاج إلى هذا التغيير وإلا فلت الأمر

---

(1) لباب الألباب لأسامة بن منقذ ص 229 دار الكتب العلمية، بيروت، 1400هـ - 1980م.

من يده. ولكن ذلك قد لا يكون عذراً مقبولاً. وخاصة إن عبد الملك عُرف قبل توليه الخلافة بتقواه وورعه وعدم رضاه عما كان يحدث لعبد الله بن الزبير ولأهل الحرم وغير ذلك من أمور.

3 – بعض آثاره الأدبية:

الحقيقة المؤكدة أننى لم أقف إلى الآن على دراسة قائمة على جمع الآثار الأدبية شعرية أو نثرية للخليفة عبد الملك بن مروان.. ولذلك فالكثير من هذه الآثار ما زال مبثوثاً فى مظان الكتب الأدبية والتاريخية. إلا ما كان من الأستاذ الدكتور أحمد زكى صفوت، من جمع لبعض خطبه ووصاياه. فى كتابه الموسوم بجمهرة خطب العرب[1].

وليس غرضى فى هذا البحث أن أقوم بجمع ذلك التراث الأدبى، ولكن الذى أردت هو الإشارة إلى بعض هذه النصوص الأدبية القيمة التى صدرت عن الخليفة عبد الملك بن مروان.

لعلنى أستطيع من خلال تلك النصوص أن أتبين مكانته الأدبية، ومن ثم أدلل على تذوقه الأدبى والنقدى. فصاحب الذوق الفنى يتضح ذوقه فيما يصدر عنه من خطب ووصايا وحكم وأشعار وغيرها، أو من خلال تذوقه وتأمله لما يسمع أو يقرأ. فقد " كان خلفاء بنى أمية يجيدون الخطابة ولا سيما معاوية ويزيد ابنه، وعبد

---

(1) جمهرة خطب العرب. للدكتور أحمد زكى صفوت، جـ2/1992: 199. المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

الملك وسليمان بن عبدالملك وعمر بن عبد العزيز""[1]

وقد روى ابن أبى الحديد جانباً من مفاخرات بنى أمية وبنى هاشم، وكان مما تفاخروا به كثرة الخطباء. ففخر بنو أمية بمعاوية بن أبى سفيان: "أخطب الناس قائماً وقاعداً وعلى منبر وفى خطبة نكاح". ويزيد ابنه وكان أعرابى اللسان، بدوىّ اللهجة. وفخروا كذلك بعبدالملك وسليمان والوليد بن يزيد ويزيد الناقص. كما فخروا بمن عُرف بإجادة الخطابة من سائر الأسرة الأموية.[2]

وهذا يدلنا على مكانة الخليفة عبد الملك بن مروان الخطابية بين خطباء عصره، فهو يأتى ضمن من كانوا يفخرون بهم فى هذا المجال من بنى أمية. ولعل من أهم تلك الآثار الأدبية التى تركها لنا هذا الخليفة الأموى:

(أ) الخطب:

وهى تلك الخطب التى تحمل بين طياتها الكثير من المعانى والأفكار، فقد كان لا يجهل أنه ظفر بالحكم عن طريق القوة والبطش، وأن معظم أهل الأمصار، مادانوا له إلا مكرهين. وإن تظاهروا بالطاعة والولاء. ولذلك فهو يعمد فى خطبه إلى التهديد والوعيد والتنكيل حتى يرتدع من تحدثه نفسه بالعصيان والتمرد.

---

(1) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى للدكتور إحسان النص، ص 268. دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد جـ4771/3. مصر 1329هـ.

1 - يقول فى خطبة له: " أيها الناس إنى والله ما أنا بالخليفة المستضعف " يريد عثمان بن عفان " ولا بالخليفة المداهن " يريد معاوية بن أبى سفيان" ولا بالخليفة المأفون " يريد يزيد بن معاوية" فمن قال برأسه كذا قلنا له بسيفنا كذا".

ويعلق أبو إسحاق النظام على تلك الخطبة بقوله: " أما والله لولا نسبك من هذا المستضعف، وسبيلك من هذا المداهن لكنت منها أبعد من العيوق، والله ما أخذتها بوراثة ولا سابقة ولا قرابة، ولا بدعوى شورى، ولا بوصية."[1]

وواضح ما فى تلك الخطبة من تهديد وتلويح بالسيف، فمن أشار برأسه رافضاً فليس له إلا السيف قاطعاً، وبذلك تكون الطاعة مقترنة بالسيف عند الخليفة عبد الملك بن مروان، فهو ينفى عن نفسه الضعف الذى نسبه البعض إلى عثمان والمداهنة التى نسبت إلى معاوية، والخطل فى الرأى الذى نسب إلى يزيد ابن معاوية.

2 - وعلى هذه الوتيرة وتلك النغمة القوية جاءت خطبته التالية حيث يقول: " أيها الناس إن الحرب صعبة مرة وإن السَّلم أمن ومسرَّة، وقد زبنتنا الحرب وزبنَّاها فعرفناها وألفناها؛ فنحن بنوها وهى أمُّنا.

أيها الناس، فاستقيموا على سُبل الهدى؛ ودعوا الأهواء المردية، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين. ولا تكلفونا أعمال

---

(1) ينظر هامش جمهرة خطب العرب للدكتور أحمد زكى صفوت، ص 192.

المهاجرين الأولين؛ وأنتم لا تعملون أعمالهم؛ ولا أظنّكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً، ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة؛ فمن شاء منكم أن يعود بعدُ لمثلها فليعد، فإنما مَثَلى ومثلكم كما قال أبو قيس بن رِفاعة:

مَنْ يَصل نارِى بلا ذَنْبٍ ولا تِرَةٍ ... يصْلَ بنار كريمٍ غيرِ غَدَّار.
أنا النذير لكم منى مجاهرةً ... كىّ لا أُلامَ على نَهْى وإنذار
فإن عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا ... أن سوف تلقون خِزيا ظاهر العار.
لترجعُنَّ أحاديثاً مُلعَنةً ... لهْوَ المقيم ولهوَ المدلج السارى
من كان فى نفسه حَوجاءُ يطلبها ... عندى فإنى له رَهْنَ بإصحْار
أقيم عَوجتَه إن كان ذا عَوجٍ ... كما يُقَوِّمُ قِدْحَ النبعةِ البارى
وصاحبُ الوتر ليس الدَّهْرَ مُدْرِكه ... عندى وإنى لدَرَّاك بأوتار.[1]

وعندما ننظر لهذه الخطبة نجد أن الخليفة يوازن بين الحرب ومرارتها وصعوبتها وبين السّلم وأمنه ومسرته. ثم يذكر معرفتهم بالحرب وداريتهم بفنونها فهم بنوها.

وبعد ذلك التهديد والوعيد نجده يدعو الرعية إلى الاستقامة على سبل الهدى. وترك الأهواء المردية وتجنب فراق جماعة المسلمين والخروج عليهم. ثم يذكرهم بألا يطالبوا الحاكم بأعمال المهاجرين الأولين وهم لا يعملون أعمالهم. ثم يبين لهم أنه لا يظن بهم بعد هذه الموعظة إلا الشر، وفى المقابل فإنهم لن يزدادوا بعد هذا الإعذار إليهم والحجة عليهم إلا عقوبة.

(1) الأمالى للقالى، جـ1/12:11.

ثم نجده يختم خطبته بالتمثل بأبيات من الشعر جاءت على لسان الشاعر أبو قيس بن رفاعة. وهى تحمل بين طياتها أيضاً تهديداً ووعيدا كالذى جاء فى الخطبة.

ومن ثم يتضح لنا من خلال خطبته تلك وتمثله بشعر أبو قيس بن رفاعة قدرته على الفهم والتذوق، فهو يحاول أن يقنع رعيته بما يجب عليهم من الطاعة وعدم الخروج على الجماعة، مبرهناً على رأيه من واقعهم الذى يعيشونه، محذرهم من نتيجة خروجهم وعدم طاعتهم مبيناً أن عاقبة ذلك ستكون وخيمة مستشهداً ومتمثلاً بما يحفظ من شعر. لأنه يعلم ما للشعر من أثر عظيم فى نفوسهم.

3 - ومن الخطب التى تندرج تحت هذا النوع أيضاً تلك الخطبة التى يقول فيها: "أيها الناس إن الله حدّ حدوداً، وفرض فروضاً فما زلتم تزدادون فى الذنب، ونزداد فى العقوبة، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف"[1].

وواضح ما تحمله تلك الخطبة الموجزة من معانى التهديد. فكلما ازدادت الرعية فى الذنب، ازداد الحاكم فى العقوبة وكان احتكامهم للسيف. فالخروج على الطاعة هنا لا يعنى غير الذنب، والذنب لا يستوجب سوى العقوبة. والعقوبة لا تقترن إلا بالسيف، وبذلك يتدرج الخليفة فى خطبته على هذا النحو حتى تنتهى بصورة واحدة يقف عندها وهى صورة السيف.

---

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ263/2 – طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر 1940.

4 - كثيراً ما كان الخليفة عبد الملك بن مروان يلجأ إلى أسلوب التمثيل أو التشبيه فى خطبه فيوازن حالة بأخرى ليكون كلامه أوقع فى النفس وأبلغ فى التأثير وهو غالباً ما يستمد ذلك من الأمثال المتداولة فى البيئة حينئذ أو المأخوذة من القرآن الكريم.

فعندما رفض أهل المدينة قبول عطاء عبد الملك لأنه أعطاهم من الصدقات، لا من الفىء قال فيهم خطبة وصف فيها حاله وحالهم حيث شبه فيها حاله وحال قريش بقصة الرجلين والحية التى تأتى بالدنانير.

يقول عبد الملك: " يا معشر قريش مثلنا ومثلكم أن أخوين فى الجاهلية خرجا مسافرين، فنزلا فى ظل شجرة تحت صفاة، فلما دنا الرواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً فألقته إليهما، فقالا: إن هذا لمن كنز. فأقاما عليها ثلاثة أيام، كل يوم تخرج إليهما ديناراً، فقال أحدهما لصاحبه: إلى متى ننتظر هذه الحية؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه؟ فنهاه أخوه، وقال له: ما تدرى لعلك تعطب ولا تدرك. فأبى عليه، وأخذ فأساً معه ورصد الحية حتى خرجت، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها، فثأرت الحية فقتلته، ورجعت إلى جحرها، فقام أخوه فدفنه، وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ليس معها شىء. فقال لها: يا هذه إنى والله ما رضيت ما أصابك، ولقد نهيت أخى عن ذلك، فهل لك أن نجعل الله بيننا ألا تضرينى وألا أضرك، وترجعين إلى ما كنت عليه؟

قالت الحية: لا. قال: ولم ذلك؟ قالت: إنى لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً وأنت ترى قبر أخيك، ونفسى لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشجة".

وأنشدهم شعر النابغة:

فقالت: أرى قبراً تراهُ مقابلى   وضربة رأس فوق رأسى فاقرة

فيا معشر قريش، وليكم عمر بن الخطاب فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم، فسمعتم له وأطعتم، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ليناً كريماً فعدوتم عليه فقتلتموه، وبعثنا عليكم مسلماً يوم الحرة فقتلتموه. فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً وأنتم تذكرون يوم الحرة ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر مقتل عثمان." [1]

ويتضح لنا من تلك الخطبة أن الخليفة مثل حاله وحال قريش عندما رفض أهل المدينة قبول العطاء على أنه من مال الصدقة، وليس من الفيء. بحال الرجلين والحية. فلا يأمن أحدهما للآخر. وكذلك نجده يتمثل بشعر النابغة مدللاً به على ما يريد.

5 - ومن ذلك أيضاً ما كتبه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى أحد ولاته وهو الحجاج بن يوسف الثقفى وذلك عندما أسرف فى قتل أسارى دير الجماجم وإعطائه الأموال. فكتب إليه يقول:

---

(1) مروج الذهب للمسعودى، جـ2/93.

" أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك فى الدماء، وتبذيرك فى الأموال، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس وقد حكم عليك أمير المؤمنين فى الدماء فى الخطأ الدية وفى العمد القود، وفى الأموال ردها إلى مواضعها، ثم العمل فيها برأيه، فإنما أمير المؤمنين أمين الله. وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل.

فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران لين وشدة، فلا يؤنسنك إلا الطاعة، ولا يوحشنك إلا المعصية، وظن بأمير المؤمنين كل شىء إلا احتمالك على الخطأ، وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً.

وكتب فى أسفل كتابه:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها ... وتطلبْ رضائى بالذى أنا طالبُه

وتخشى الذى يخشاه مثلُك هارباً ... إلى الله منه ضيَّع الدَّرَّ حالبُه

فإن تر منى غفلة قرشية ... فيا ربما قد غص بالماء شارِبُه

وإن تر منى وثبةً أموية ... فهذا وهذا كلٌّ ذا أنا صاحِبُه

فلا لا تلمنى والحوادثُ جمّةٌ ... فإنك مجزىٌّ بما أنت كاسِبُه

ولا تعْدُ ما يأتيك منى وإن تَعُدْ ... يقوم بها يوماً عليك نوادبُه

ولا تنقصَنْ للناس حقاً علمته ... ولا تعطين ما ليس لله جانِبُه.

وهى أبيات من جيد ما اخترناه من قول عبد الملك[1].

وهذا الذى جاء من الخليفة لأحد ولاته وهو الحجاج بن يوسف الثقفى الذى عُرف ببطشه وجبروته. يحذره من التمادى فى سفك الدماء والتبذر فى عطاء الأموال. وهما خصلتان لا يريدهما الخليفة لأحد من الناس. ولذا نجده يحكم عليه فى الدماء - فى الخطأ الدية، وفى العمد القود. وفى الأموال ردها إلى مواضعها. ولا غرابة فى ذلك فالخليفة أمين الله وسلطانه فى أرضه وسيان عنده منع حق أو إعطاء باطل. ثم يحذره بأنه سوف يأتيه من أمير المؤمنين أمران، لين وشدة، فلا يؤنسنه إلا الطاعة ولا يوحشنه إلا المعصية. وأن يظن بأمير المؤمنين كل شىء إلا احتماله على الخطأ. ثم ينصحه إذا تحقق له النصر فلا يقتل جانحاً ولا أسيراً.

وإذا نحن تأملنا قوله " فلا يؤنسنك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا المعصية". نجد تلك الصورة التمثيلية التى يصور فيها أمير المؤمنين الطاعة بشىء مادى يؤنس، والمعصية بشىء مادى يوحش ويرهب. ولاحظ تلك الموازنة بين صورة الطاعة وصورة المعصية ليتضح لك، مدى تذوق الخليفة الأدبى وحسه البيانى الذى مكنه من الإمساك بناصية البلاغة والبيان.

ثم نجده يختم كتابه بأبيات من الشعر تحمل بين طياتها تهديداً ووعيداً لذلك الوالى حتى يحمله على عدم الخروج عن طاعته.

---

(1) مروج الذهب للمسعودى، جـ2/93.

والعدل بين الناس وإنصافهم. ومستشهداً بذلك على ما جاء في كتابه مدللاً على ذوقه وحسه الشعرى الجيد وعلمه ما للشعر من أثر عظيم في النفوس.

6 - وهذا الذى ذكرناه آنفاً عن خطبه السياسية التي يتضح من خلالها بما لايدع مجالاً للشك، تمكنه من هذا الفن الأدبى، وكذلك أيضاً جاءت بعض خطبه الدينية. فكثيراً ما كان يختم تلك الخطب بالحمد أو الدعاء أو الاستغفار. ومن ذلك قوله: " اللهم إن ذنوبى قد عظمت وجلت عن أن تحصى وهى صغيرة فى جنب عفوك ".[1]

وهذا الذى جاء من الخليفة لا غرابة فيه فقد عرف قبل توليه الخلافة بنسكه وزهده وورعه وتقواه ولذلك ظهرت فى خطبته تلك الناحية الدينية من حمد لله والثناء عليه وطلبه للتوبة والاستغفار.

قال الأصمعى: " خطب عبد الملك فحصر، فقال: إن اللسان بضعة من الإنسان وإنا نسكت حصراً ولا ننطق إلا هذراً ونحن أمراء الكلام، فينا رسخت عروقه، وعلينا تدلت أغصانه وبعد مقامنا هذا مقام وبعد عيِنًّا هذا مقال، وبعد يومنا هذا أيام يعرف فيها فصل الخطاب وموضع الصواب." [2]

---

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه، جـ90/4.

(2) البداية والنهاية لابن كثير جـ86/5: 87.

وهذا الذى جاء عن الخليفة يدلنا على تمكنه من الخطابة وأنه يصول ويجول فيها فإن لم يكن فى هذا اليوم ففى غيره من الأيام وإن لم يكن فى هذا المقام فبعد مقامنا هذا مقام.

ويلاحظ " أنه قد توافر للجمهور فى ذلك العصر قسط وافر من الإحساس الأدبى والروح النقدية والمعرفة بأسرار البلاغة القولية — جعل الخطباء يتهيبون لقاءه وتعتريهم الرعشة حينما يخطبون أمامه وربما اعتراهم الحصر، وارتج عليهم المنبر وربما تصبب العرق منهم لشدة اضطرابهم.[1]

حتى إن عبد الملك بن مروان قد اعتراه الحَصَر فى إحدى خطبه، ولم ينج من رعشة المنابر، قال الأصمعى: " قيل لعبد الملك: أسرع إليك الشيب، فقال وكيف لا؛ وأنا أعرض نفسى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين؟ وقال غيره: قيل لعبد الملك: أسرع إليك الشيب، فقال: أو تنسى ارتقاء المنابر ومخافة اللحن".[2]

وفى ذلك دلالة على ما كان يتمتع به الخليفة من سمات خطابية عظيمة كغيره من خطباء عصره مما يدلنا على مقدرته البلاغية وتذوقه الأدبى الذى استطاع من خلاله أن يرضى جمهوره ويستميلهم إليه.

---

(1) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى للدكتور إحسان النص، ص 247.

(2) البداية والنهاية لابن كثير جـ87/5.

(ب) وصـــاياه:

فإذا ما تركنا الحديث عن فن الخطابة لنتلمس تلك المكانة الأدبية عند ذلك الخليفة محاولين فى جانب آخر من جوانب فن النثر. لوجدنا أن الوصايا تأتى فى المنزلة التالية للخطابة. حيث صدر عنه الكثير من الوصايا المتنوعة والشاملة لنواحى الحياة المختلفة:

1 - وصيته لولده عند وفاته: حيث نظر إلى ابنه الوليد وهو يبكى على رأسه فقال: " يا هذا أحنين الحمامة؟ إذا أنا مت فشمر واتَّزر والبس جلد نمر وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك، فأضرب عنقه ومن سكت مات بدائه".

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا، فقال: " إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لقليل، وإن كنا منك لفى غرور". ثم أقبل على جميع ولده فقال: " أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمة باقية، وجنة واقية، فالتقوى خير زاد، وأفضل فى المعاد، وهى أحصن كهف، وليعطف الكبيرُ منكم على الصغير، وليعرف الصغيرُ حق الكبير، مع سلامة الصدور، والأخذ بجميل الأمور. وإياكم والبغى والتحاسد، فبهما هلك الملوك الماضون، وذوو العز المكين .. يا بنى أخوكم مسلمة نابكم الذى تَفْتَرُّون عنه، ومجنُّكم الذى تسْتجنون به، اصدروا عن رأيه، وأكرموا الحجّاج فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر، وكونوا أولاداً أبراراً، وفى الحروب أحراراً، وللمعروف مناراً

وعليكم السلام."[1]

وفى الحقيقة أن تلك الوصية التى صدرت عن الخليفة عبد الملك بن مروان تعد من أكثر وصاياه تنسيقاً وإعداداً جيداً حيث حملت بين طياتها الكثير، فمنها السياسى كقوله: "يا هذا أحنين الحمامة؟ إذا أنا مت فشمر واتزّر والبس جلد نمر وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه لك، فأضرب عنقه، ومن سكت مات بدائه."

"والوصايا السياسية تعكس ما يتحلى به الموصى من دهاء وبعد نظر وحنكة سياسية وخبرة بنفوس الرعية وطريقة معاملتها..."[2]

ومن هنا كانت وصية عبد الملك لابنه الوليد حيث خطط فيها لسياسة بنى أمية نحو رعيتهم وما يجب على ابنه الوليد أن يفعله، وكذلك نجد فى تلك الوصية أيضاً الحكمة الخالصة التى اكتسبها الموصى من تجاربه فى الحياة، فهو يعطى خلاصة تلك التجارب لابنه وولى عهده. فيقول فى ذم الدنيا " إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لقليل وإنا كنا منك لفى غرور."

كذلك جاء فى تلك الوصية أيضاً ما عُرف بالوصايا الدينية، التى تدلنا على نسكه وتقواه وورعه، وما عُرف به فى

---

(1) جمهرة خطب العرب للدكتور أحمد زكى، جـ199/2.

(2) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى للدكتور إحسان النص، ص 191.

بداية حياته، حيث يقول: "أوصيتكم بتقوى الله، فإنها عصمة باقية، وجنة واقية . فالتقوى خير زاد، وأفضل فى المعاد، وهى أحصن كهف."..

وهناك أيضاً فى تلك الوصية جانب اجتماعى أو ما عُرف بالوصايا الاجتماعية التى يكون لها دورها الفعال فى ترابط المجتمع وقوة تآلفه ونجد ذلك فى قوله " وليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير، مع سلامة الصدور والأخذ بجميل الأمور، وإياكم والبغى والتحاسد، فبهما هلك الملوك الماضون، وذوو العز المكين."

ثم نجده يختم تلك الوصية ببيان قدر ابنه مسلمة ومكانته. فيوصى الوليد وأخوته به وذلك لأنه ابن أمه، لكنه عُرِف برجاحة رأيه وشجاعته وقوته فى الحروب. فيقول: "يا بنى أخوكم مسلمة– نابكم الذى تَفْتَرّون عنه ومجنكم الذى تستجنون به اصدروا عن رأيه."

وكذلك يوصيهم بالحجاج أهم ولاته وركن دولته، فهو الذى وطأ لهم هذا الأمر فيقول: "أكرموا الحجاج فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر."

ثم ينهى وصيته بتوجيه النصح لأبنائه جميعاً فيقول " وكونوا أولاداً أبراراً وفى الحروب أحراراً وللمعروف مناراً."

وهكذا نجد أن تلك الوصية قد جاءت فى قطعة أدبية نثرية، وإنها لم تكن وصية واحدة، وإنما كانت وصايا متعددة،

جاءت فى ألفاظ قوية معبرة، وعبارات دقيقة موحية. وجمل قصيرة تحمل معانى كبيرة، ودلالات عميقة، تنم عن ذوق صاحبها الرفيع، وحسه البليغ، وبيانه الرائع.

2 - ومن وصايا الخليفة عبد الملك بن مروان وصيته لأمير سيره إلى أرض الروم والتى يقول فيها: "أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذى إن وجد ربحاً اتجر، ، إلا تحفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك."[1]

وهذه الوصية تعد من الوصايا الحربية. والتى تكون الغاية منها تعريف الموصى له بأساليب القتال والحرب فى حالتى الدفاع والهجوم تبعاً للأصول المتبعة فى الحروب فى ذلك الوقت.

ونجد فى تلك الوصية أن الخليفة قد لجأ إلى الأسلوب التصويرى الذى وضح من خلاله فكرته وأوصلها بسرعة إلى الموصى له، حيث صور الحرب بتجارة. والمحارب هو ذلك التاجر الذكىّ الذى لا يغامر بخوض الحرب إلا إذا تأكد من الربح، ولا يطلب الغنيمة إلا بعد أن يحقق السلامة. وأن يكون فى احتياله على عدوه أشد حذراً من احتيال عدوه عليه.

ونلاحظ فى تلك الوصية . الإيجاز الشديد. وذلك يتناسب مع تقديم الوصية لمن يخرج للحرب، فالوقت له أهميته فى تحقيق

---

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه، جـ155/1.

النصر. وكذلك الألفاظ التى استخدمها كالذكاء وعدم الإسراع فى طلب الغنيمة. كل ذلك يدلنا على ذوق الخليفة الأدبى وحسن اختياره للألفاظ التى تتناسب مع الموقف الذى يتناوله فى وصيته، وكذلك إيجازه الشديد فى وصيته والذى يتناسب مع من يسير للحرب.

3 - وصيته لأخيه عبد العزيز بن مروان عندما ولاه مصر. حيث يقول: "أبسط بشرك وألن كنفك، وآثر الرفق فى الأمور فإنه أبلغ بك. وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده، وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام، يأنسوا بك، وتثبت فى قلوبهم محبتك، وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة فإنها تفتح مغاليق الأمور. وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته، فإنك على العقوبة بعد التوقف عنه أقدر منك على ردها بعد إمضائها."[1]

ويتضح لنا من هذه الوصية أنها من الوصايا السياسية حيث رسم فيها الخليفة لأخيه الذى ولاه مصر سياسته التى يجب أن يسير عليها فى ولايته.

ولا شك أن تلك الوصايا السياسية تعكس لنا ما تحلى به الخليفة عبد الملك بن مروان من دهاء وفطنة، وحنكة سياسية

---

(1) جمهرة خطب العرب للدكتور أحمد زكى، جـ199/2.

وخبرة فى الحكم وسياسة الرعية وطريقة معاملتها حتى تدين بالولاء والطاعة.

4 - ومن تلك الوصايا أيضاً وصيته للشعبى عندما اختاره لمنادمته ومجالسته والتى مرت بنا فى الصفحات السابقة من هذا البحث، حيث يقول: " يا شعبى لا تساعدنى على ما قبح.. ولا ترد على الخطأ فى مجلسى ... فإن الصمت فى موضعه ربما كان أبلغ من المنطق فى موضعه وعند إصابته فرصة."[1]

وهذه الوصية تندرج ضمن الوصايا الأدبية، وهى تلك التى تحمل بين طياتها ما يجب أن يتحلى به من يجالس الملوك من آداب وسلوك . وقد أشار بعض النقاد إلى مثل هذه الآداب. وقد ذكرت ذلك آنفاً عند تناولى لتلك الوصية فى الصفحات السابقة.

5 - ومن الوصايا المفيدة التى جاءت على لسان الخليفة عبد الملك بن مروان قوله لمؤدب أولاده– وهو إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر: علمهم الصدق. كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السفلة، فإنهم أسوأ الناس رغبة فى الخير وأقلهم أدباً، وجنبهم الحشم، فإنهم لهم مفسدة، وأحف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضا، ويمصوا الماء مصّا ولا يعبوا عبّاً، وإذا احتجت أن تتناولهم، فتناولهم بأدب، فليكن

(1) مروج الذهب للمسعودى، جـ2/71: 72.

ذلك فى سر لا يعلم به أحد من الغاشية فيهولوا عليهم."[1]

وواضح ما تحمله تلك الوصايا من حرص شديد من الخليفة على أولاده وفلذات أكباده فهو يريد أن يضمن لهم تنشئة صالحة قوية تمكنهم من الصمود أمام ما يواجهونه فى تلك الحياة.

وبذلك يتضح لنا أن وصايا الخليفة عبد الملك قد جاءت متنوعة وشاملة، فمنها السياسى والحربى والدينى والاجتماعى وغير ذلك مما يدلنا على مكانته وتنوع ثقافته وخبرته ومعرفته بشتى مجالات الحياة. فهو قد خبر الحياة وخبرته ومن ثم خرج منها بتلك الوصايا الأدبية المتنوعة والتى تنم عن ذوق رفيع وحس أدبى مرهف.

وفى نهاية حديثنا عن خطبه ووصايا، نود أن نشير سريعاً إلى حكمته.

(جـ) الحكمة:

لا شك أن الحكمة موهبة من الله سبحانه وتعالى، قال جل شأنه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾[2].

فالحكمة هبة من الله سبحانه يهبها لمن يشاء من عباده. وهى أيضاً خلاصة تجارب الإنسان فى الحياة. وخبرته التى يكتسبها مما يمر به من أحداث يكون لها عظيم الأثر فى نفسه ونفس الآخرين.

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ5/88.

(2) سورة البقرة: من الآية269.

ومن ثم كان للخليفة عبد الملك بن مروان حظ وافر من الحكمة تدلنا على ذلك حنكته السياسية ودهاؤه وفطنته. فقد استطاع أن يقضى على كل ما واجهه من فتن وثورات. وقد يكون لنشأته الأولى وما عُرف به من زهد وورع وتقى وتفقه فى الدين وكيفية معاملته لرعيته وخصومه السياسيين أثرها الواضح فى كل ذلك.

ونستطيع أن نتبين حكمته من خلال الكثير من أقواله التى جاءت فى خطبه ووصاياه، وقد مر بنا الكثير منها فى الصفات السابقة فلا داعى لتكرارها وإعادة ذكرها، فقد كانت تلك الخطب والوصايا تحمل بين طياتها حكمة بالغة. ومن ذلك قوله عن أفضل الناس: "من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة".[1]

ففى قوله هذا حِكَم كثيرة، وهى التواضع عن رفعة، والزهد عن قدرة، والإنصاف عن قوة.

ومما يدلنا على حِكمة الخليفة عبد الملك بن مروان أيضاً:

1 - ما دار بينه وبين العجاج حيث يقول: " يا عجاج، بلغنى أنك لاتقدر على الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين من قدر على تشييد الأبنية أمكنه إضراب الأخبية، قال: فما منعك من ذلك؟ قال: إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظلم وإن لنا حلماً يمنعنا من أن

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص 261.

نَظلم، فعلام الهجاء؟ فقال: لكلماتك أشعر من شعرك فأنّى لك عزّ يمنعك من أن تظلم؟ قال: الأدب البارع، والفهم الناصع، قال: فما الحلم الذى يمنعك من أن تظلم؟ قال: الأدب المستطرف، والطبع التالد، قال: يا عجاج لقد أصبحت حكيماً، قال وما يمنعنى وأنا نجىّ أمير المؤمنين".[1]

فهذا الذى دار بين العجاج والخليفة عبد الملك بن مروان إن دل على حكمة العجاج فإنه يدل أيضاً على حكمة الخليفة وبصيرته النافذة فى اختيار جلسائه ومحدثيه. وكما يقال المرء على دين خليله.

2 - ما دار بين الحجاج وعبد الملك بن مروان بشأن قطرى بن الفجاءة المازنى وقوله: " أوصيك بما أوصه به البكرى زيداً".[2] ثم محاولة الحجاج معرفة ذلك الذى تحمله تلك الوصية.

وهذا الذى أخبر به عبد الملك – الحجاج ولم يصرح به إنما يدل على ما يتمتع به عبد الملك من فطنة وذكاء. فالخليفة لحكمته وفطنته لم يصرح بما يريده، وإنما أخفاه حتى لا يعلمه العامة فينكشف أمره ولكنه ترك لصاحبه أن يستنتج ذلك بنفسه دون أن يصرح له به، وبذلك يكون تصرف عبد الملك بهذه الصورة يدل على حكمته.

---

(1) الأمالى للقالى، جـ1/45: 46.

(2) ذيل الأمالى والنوادر للقالى، ص 72، الطبعة لثالثة، مطبعة السعادة، 1373هـ.

3 - ومما يدلنا على حكمته أيضاً ما جاء في نهاية وصيته للشعبي عندما حظيّ عنده واصطفاه لمنادمته. يقول: "فإن الصمت في موضعه ربما كان أبلغ من المنطق في موضعه، وعند إصابته فرصة."[1]

فقد يكون الصمت أبلغ من النطق والتكلم في بعض الأحيان، وكما قيل الصمت حكمة والنطق عييّ.

لقد عشنا مع بعض النصوص النثرية التي صدرت عن الخليفة عبدالملك ابن مروان من خطب ووصايا بما تحمله من حكمة بالغة تدلنا على ذوق صاحبها الأدبي وبراعته وتفوقه في هذه الفنون النثرية.

(د) قوله للشعر وتمثله به:

سوف نشير سريعاً إلى بعض آثاره الشعرية والتي تتمثل في جانبين:

الأول: يتضح في تمثله في خطبه ووصاياه بالشعر الذي صدر عن شعراء مشهورين. ولذلك جاء تمثله بهذا الشعر في بعض مواضعه مستشهداً في الكثير به على ما يريد واتضح ذلك جلياً من خطبه، كخطبته في الكوفة بعد مقتل مصعب بن الزبير، والتي تمثل فيها بشعر "أبو القيس بن رفاعة ". وكذلك عندما رفض أهل

(1) مروج الذهب للمسعودي، جـ72/2.

المدينة قبول عطائه. فذكرهم بقصة الرجلين والحية. وأنشدهم شعراً للنابغة وهكذا فى الكثير من المواضع.[1]

وكذلك تمثل بالكثير من الشعر عندما حضرته الوفاة. وأيضاً وهو يوصى أبناءه ويعطيهم خلاصة تجاربه فى الحياة.[2] ولما أراد الخروج إلى مصعب بن الزبير لاذت به عاتكة بنت يزيد بن معاوية وهى أم ابنه يزيد وقالت له: يا أمير المؤمنين لا تخرج السنة لحرب مصعب فإن آل الزبير ذكروا خروجك، وابعث إليهم الجيوش. وبكت، وبكت معها جواريها. وجلس وقال: قاتل الله ابن أبى جمعة – كُثيراً – فأين قوله:

إذا ما أراد الغزو لم تثن همَّه   حصانٌ عليها عقد دُرٍّ يزينهـــا

نهته فلما لم تر النهى عاقَهُ   بكت فبكى مما شجاها قطينها

والله لكأنه يرانى ويراك يا عاتكة، ثم خرج فكان فى خروجه قتل مصعب.[3]

ولما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق، صعد المنبر وذكر عمراً فوقع فيه وذكر خلافه وشقاقه ونزل من المنبر وهو يقول:

---

(1) راجع الصفحات السابقة من البحث تحت عنوان بعض آثاره الأدبية.

(2) البداية والنهاية لابن كثير جـ90/5: 92. وتاريخ الخلفاء للسيوطى، ص 262: 263. ومشاهير الإسلام للذهبى، جـ52/3: 53.

(3) الأغانى لأبى فرج الأصبهانى، جـ69/8.

أدنيته منى لتسكنَ نفْرةٌ فأصول صولةَ حازم مُسْتَمْكن

غضباً ومحماة لدينى إنه ليس المسيء سبيله كالمحسن[1]

فتلك الأمثلة تعطينا صورة واضحة عن سعة إحاطة عبد الملك بالشعر وجمال تمثله به فى المواقف المختلفة التى تعرض لها فى حياته.

الثانى: قرضه للشعر، كتلك الأبيات التى ذيل بها كتابه للحجاج بن يوسف الثقفى عندما أسرف فى قتل أسارى دير الجماجم. حيث كتب فى أسفل كتابه:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها وتطلبْ رضائى بالذى أنا طالبه

وتخشى الذى يخشاه مثلك هارباً إلى الله منه ضيع الدَّرُّ حالبه

فإن تر منى غفلة قرشية فيا ربما قد غُصّ بالماء شاربه

وإن تر منى وثبةً أموية فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه

فلا لا تلمنى والحوادث جمة فإنك مجزىٌّ بما أنت كاسبه

ولا تعْدُ ما يأتيك منى وإن تعُدْ يقوم بها يوماً عليك نوادبه

ولا تنقصَنْ للناس حقاً علمته ولا تعطين ما ليس لله جانبه[2]

(1) مروج الذهب للمسعودى، جـ2/79.

(2) مروج الذهب للمسعودى، جـ2/103.

وقد علق صاحب مروج الذهب على هذه الأبيات بقوله: "وهى أبيات من جيد ما اخترناه من قول عبد الملك."[(1)]

ولا شك أن هذه الأبيات جيدة السبك قوية الدلالة. واضحة المعنى، قالها عبد الملك ليؤيد بها ما جاء فى كتابه للحجاج وذلك لأنه يعلم جيداً ما للشعر من أثر عظيم فى النفوس.

ومن آثار عبد الملك الشعرية أيضاً ما روى عنه فى صفة أبنائه، فقد كان عبد الملك يكن لأبنائه شعوراً مليئاً بالحب والمودة. مبيناً صفة كل واحد منهم ومبلغ حبه لهم. يقول عبد الملك فى بنيه:

يزيد زيادة الرحمن فينا	وصاحبُ عُروةَ الأمرِ الشديد
ومروان الصفىّ صفىُّ نفسى	شبيه النفس منى والخدود
وعبد الله صاحبُ كلِّ حربٍ	وغزوٍ تحت أبدان الحديد
فقد علقت بحبِّهمُ جميعاً	على أن الخلافة للوليد
سليمانُ الشّعار شِعارُ قلبى	أحبُّ إلىّ من ذوب الشهود
ورأيى فى هشامٍ أن فيه	حياةً للجنود وللوقود.[(2)]

(1) المصدر السابق، جـ103/2.

(2) أنساب الأشراف للبلاذرى جـ172/11. وينظر أيضاً الخلافة الأموية للدكتور عبد الأمير دكن، ص 41.

ففى هذه الأبيات حاول الخليفة عبد الملك بن مروان أن يعطى لكل ابن من أبنائه صفته المحببة إليه، فهو أدرى بأبنائه وبما يتصفون به، معلناً أن الخلافة بعده تكون لابنه الوليد.

وعن جبلة بن عبد الملك قال: سابق عبد الملك بين سليمان ومسلمة، فسبق سليمان مسلمة، فقال عبد الملك أبياتاً من الشعر:

ألم أنهكم أن تحملوا هُجناءكم	على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوى المرآن هذا ابنُ حُرَّة	وهذا ابن أخرى ظهرها متشرّك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه	وتقصر رجلاه فلا يتحرك
وأدركنه خالاته فنزعنه	ألا إن عِرَق السّوْء لابد يُدرك

فأجابه مسلمة قائلاً: يا أمير المؤمنين ما هكذا قال حاتم الطائى.

قال عبد الملك: وماذا قال حاتم. فقال مسلمة: قال حاتم:

وما أنكحونا طائعين بناتهم	ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السِّباءُ مذلة	ولا كُلِّفت خُبزاً أو لاطَبخت قِدرا
ولكن خلطْناها بخير نسائنا	فجاءت بهم بيضاً وجوهُهُمُ زُهرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية	إذا لقىَ الأبطالَ يطْعنهم شذرا
ويأخذ رايات الطعان بكفّه	فيُوردها بيضاً ويُصدرها حمرا
أغرٌّ إذا غبَّر اللئام رأيته	إذا سرى ليل الدجى قمراً بدرا.[1]

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه، جـ130/6: 131.

فتلك مناظرة شعرية بين عبد الملك وابنه مسلمة. تدلنا بوضوح على مقدرة عبد الملك الشعرية، ومدى تذوقه للشعر وفهمه لمعانيه.

وعندما ذكر الشعر عند عبد الملك بن مروان قال: " إذا أردتم الشعر الجيد فعليكم بالزُّرق من بنى قيس بن ثعلبة، وهم رهط أعشى بكر، وبأصحاب النخيل من يثرب يريد الأوس والخزرج وأصحاب الشغف من هذيل".[1]

وهذا النص يدلنا على معرفة الخليفة عبد الملك للشعر الجيد ومن يقوله من الشعراء ومواطنهم، فقد كان عبد الملك عالماً بفنون الشعر، فاهماً ومتذوقاً لما يقوله الشعراء، فقد قيل له من أشجع العرب فى شعره.[2]

فقال: عياش بن مرداس حيث يقول:

أشد على الكتيبة لا أبالى أحتفى كان فيها أم سواها

وقيس بن الخطيم، حيث يقول:

وإنّىَ فى الحرب العوان مُوَكَّلٌ بإقدام نفْسٍ ما أريد بقاءها

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه، جـ373/5.

(2) ذكر صاحب شرح شواهد المغنى أن السبب أنهم لم يجزعوا عند الموت ينظر شرح شواهد المغنى للسيوطى، ص 547. لجنة التراث، بيروت.

والمزينى حيث يقول:

دعوتُ بنى قُحافَةَ فاستجابوا　　فقلتُ: رِدوا فقد طال الوُرود[1]

هذه هى بعض آثار الخليفة عبد الملك بن مروان الشعرية أردت من خلالها أن أدلل على قوله للشعر وتذوقه له وتمثله به، وبذلك يتضح لنا من الأخبار المروية عن الخليفة عبد الملك بن مروان أنه كان كثيراً ما يطرح أسئلة على جلسائه أو يطلب منهم أن ينشدوه فى موضوع معين. وكأنه بذلك يريد أن يختبرهم أو يقيس مدى علمهم بالشعر إلى علمه، ومدى ذوقهم الأدبى إلى ذوقه.

4 – موقف الخليفة من الشعر والشعراء:

كان الخليفة عبد الملك بن مروان متذوقاً للشعر فاهماً لدلالة النص مقدراً للشعراء مكانتهم وأثرهم فى المجتمع. ولذلك كان للشعر أهمية عظيمة واثر كبير فى نفسه. ويتضح لنا ذلك من خلال مواقفه مع الشعراء وتأثره بشعرهم.

1 - فقد روى ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء: " أنه وفد على عبدالملك ابن مروان وفد أهل الكوفة، فلما دخلوا عليه وكلمهم رأى فيهم رجلاً آدم طويلاً، فكلمه فأعجبه بيانه، فلما تولى تمثل عبد الملك بقول عمرو ابن شأس:

وإن عراراً إن يكن غير واضح　　فإنى أحب الجون ذا المنكب العمم

(1) محاضرات الأدباء، جـ137/2.

فالتفت الآدم إلى عبد الملك، فضحك. فقال عبد الملك: عليَّ به. فلما جئ به قال له ما أضحكك؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين عِرار. فأقعده معه وقدمه وسامره حتى خرج.

ومن هذا الموقف يتضح لنا أهمية الشعر عند الخليفة ومكانة الشعراء وحظوتهم عنده وخاصة من يصبح شعرهم مضرباً للأمثال. ويسير على كل لسان، ولذا كان احترام الخليفة للشاعر عِرار وتقديره له. والجلوس معه للسمر والحديث.

2 - قال عبد الملك بن مروان لأمية بن عبد الله: مالك ولُحْرثان بن عمرو حيث يقول فيك:

إذا هتف العصفورُ طار فؤادُه وليثٌ حديدُ الناب عند الثَّرائد

فقال: يا أمير المؤمنين وجب عليه حد فأقمته، فقال: هلا درأت الحد عنه بالشبهات؟ فقال: كان الحد أبين. وكان رغمه عليَّ أهون. فقال عبد الملك: يابنى أمية، أحسابكم أنسابكم لا تعرّضوها للهجاء وإياكم وما سار به الشعر. فإنه باق ما بقى الدهر، والله ما يسرنى أنى هجيت بهذا البيت وأن لى ما طلعت عليه الشمس.

يبيتون فى المشتى مِلاءً بطونُهم وجاراتُهم غَرْثى يبْتنَ خمائصا

وما يبالى من مُدح بهذين البيتين ألا يمدح بغيرهما :-

هنالك إن يُستخبَلوا المالَ يُخبلوا وإن يُسألوا يُعطوا وإن يَيْسروا يُغْلوا
على مُكثريهم رزقُ من يَعتريهمُ وعند المقلين السماحةُ والبذلُ(1)

فالخليفة هنا حريص كل الحرص على بنى أمية ألا يعرضوا أحسابهم لهجاء الشعراء. كما أنه يرغب فى المديح ويحرص عليه أشد الحرص. وذلك لأنه يعرف للشعر أهميته وقدره ولما يتحدث به الشعراء من أثر عميق سواء كان مديحاً أو هجاءً. فالشىء الذى يسير به الشعر باق أبد الدهر.

ومثل هذا الموقف لا يصدر إلا عن من يمتلك حاسة أدبية قوية يستطيع من خلالها فهم ما للنص الشعرى من دلالات وقيم.

3 - ومما يدلنا على ذلك أيضاً ما رُوى: " أنه لما ولىّ عبد الملك الخلافة عام الجماعة. وفد عليه " الحارث بن خالد" فى دين كان عليه . وذلك فى سنة خمس وسبعين، وقال مصعب فى خبره بل حج عبد الملك فى تلك السنة فلما انصرف رحل معه الحارث إلى دمشق، فظهرت له جفوة، وأقام ببابه شهراً. لا يصل إليه فانصرف عنه وقال فيه:

---

(1) الأمالى للقالى حـ154/2. وقوله: هنا لك أن يستخبلوا المال ....." من قولهم: استخبل الرجل إبلاً وغنماً، فأخبله: استعار منه ناقة بألبانها وأوبارها. أو فرسا يغزو عليه فأعاره. وهو مثل الأكفاء إلا إن الأكفاء أن يعطيه الناقة لينتفع بلبنها ووبرها وما تلده فىّ عامها. والإخبال مثله فى اللبن والوبر دون الولد.

صحبتُك إذْ عينى عليها غشاوةٌ فلما انجلَتْ قطعَّتُ نفسى ألومها
وما بى وإن أقصيتنى من ضراعة ولا افتقرت نفسى إلى من يضيمها

وبلغ عبد الملك خبره وإنشاده الشعر، فأرسل إليه من رده من طريقه. فلما دخل عليه قال له: حار أخبرنى عنك! هل رأيت فى المقام ببابى غضاضة، أو فى قصدى دناءة؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: فما حملك على ما قلت، وفعلت؟

قال: جفوة ظهرت لىّ، كنت حقيقاً بغير هذا. قال: فاختر، فإن شئت أعطيتك مائة ألف درهم أو قضيت دينك أووليتك مكة. فولاه إياها، فحج بالناس وحجت عائشة بنت طلحة عامئذ، وكان يهواها."[1]

ففى هذا الموقف الذى دار الحوار فيه بين الخليفة عبد الملك بن مروان والشاعر الحارث بن خالد. ما يدل دلالة واضحة على تذوق الخليفة للشعر وفهم معانيه وما له من أثر فى نفسه وتقدير لقائله ومن ثم كانت مكافأة الخليفة للشاعر. لمجرد قوله للشعر ليس إلا.، رغم أن هذا الشعر لا يحمل بين طياته مدحاً للخليفة أو إشادة به، بل فيه إشارة ولو ضمنية تظهر تضجر الشاعر من إهمال الخليفة له وعدم العناية به. ومع ذلك لم يفت على الخليفة أن يسترضيه ويكرمه وأرسل إليه من رده عن طريقه.

---

(1) الأغانى لأبى الفرج الأسبهانى جـ1631/7.

4 - ذكر صاحب الأغانى: " أن عبد الملك بن مروان كان يتمثل بأبيات شبيب ابن البرصاء. فى بذل النفس عند اللقاء. ويعجب به، من مثل قوله:

دعانِىَ حصنٌ للفرار فساءنى ... مواطن أن يُثنى علىَّ فأُشْتما
فقلت لحصن: بغّ نفسَك إنما ... يذود الفتى عن حوضه أن يُهدَّما
تأخرتُ أستبقى الحياةَ فلم أجد ... لنفسى حياةً مثل أن أتقدّما
سيكفيك أطرافَ الأسنةِ فارسٌ ... إذا ريع نادى بالجواد وبالجمى
إذا المرءُ لم يغش المكارِهَ أوشكت ... حبال الهوينى بالفتى أن تجذما[1]

ولا يفوتنا أن نذكر أن فهم عبد الملك وتذوقه وإدراكه لما تحمله الأبيات السابقة من معانٍ وقيم عربية أصيلة، هو الذى حمله على أن يتمثل بها فى بعض مواقفه.

5 - ذُكر أن الشاعر نصيباً دخل على عبدالملك بن مروان. فعاتبه الخليفة ولامه على قلة زيارته له وإتيانه إياه. فقال: يا أميرالمؤمنين، أنا عبد أسود، ولست من معاشرى الملوك، فدعاه إلى النبيذ، فقال: يا أمير المؤمنين أنا أسود البشرة، قبيح المنظرة. وإنما وصلت إلى مجلس أمير المؤمنين بعقلى، فإن رأى أمير المؤمنين ألا يدخل عليه ما يُزيله فعل! فعافاه ووصله. فقال نصيب:

---

(1) الأغانى لأبى فرج الأصبهانى جـ281/12. طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، بيروت، لبنان.

سَوِدْتُ فلم أملكْ سوادى وتحته ... قميصٌ من القُهوى بيضٌ بنائقه
وَلا خير فى وُدِّ امرئٍ مُتكارهٍ ... عليك ولا فى صاحبٍ لا توافقه
فإن شئت فارفضه فلا خير عنده ... وإن شئت فاجعله خليلاً تصادقه.[1]

ولا شك أن فى معاتبة الخليفة للشاعر نصيب، ولومه على قلة زيارته للخليفة ما يدل على حرص الخليفة على الاستماع للشعر، بغض النظر عن قائله سواء كان قبيح المنظر أسود اللون أو غير ذلك. فالذى يحرص عليه الخليفة هو الشعر لأهميته وأثره الفعال. ولتذوقه له وفهمه لدلالاته.

6 – دخل أرطأة ابن سهية على عبد الملك بن مروان فقال له:كيف حالك يا أرطأة- وقد كان أسن – فقال: ضعفت أوصالى. وضاع مالى، وقل منى ما كنت أحب كثرته، وكثر منى ما كنت أحب قلته، قال: فكيف أنت فى شعرك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أطرب، ولا أغضب ولا أرغب، ولا أرهب، وما يكون الشعر إلا من نتائج هذه الأربع، على أنى القائل:

رأيت المرءَ تأكله الليالى ... كأهل الأرض ساقطةَ الحديد
وما تُبْقى المنيةُ حين تأتى ... على نفس ابن آدم من مزيد
وأعلم أنها ستكُرُّ حتى ... تُوَفِّىَ نذرها بأبى الوليد

---

(1) ذيل الأمالى للقالى، ص 127.

فارتاع عبد الملك، ثم قال: بلى توفى نذرها بك، ويلك ! مالى ولك؟ فقال: لا ترع يا أمير المؤمنين، فإنما عنيت نفسى - وكان أرطأة يكنى أبا الوليد. فسكن عبد الملك، ثم استعبر باكياً وقال: أما والله مع ذلك لتلمّن بىّ.[1]

وفى هذا الموقف الذى كان بين الخليفة وأرطأة بن سهية، مايدل على تذوقه للشعر وفهم معانيه والتأثر به، فالخليفة يسأل أرطأة، كيف أنت فى شعرك؟ وفى هذا السؤال ما يدل على عناية الخليفة بالشعراء وبما يقولون وحرصه الدائم على السؤال عنهم ورعايته لهم وحبه لسماع شعرهم وتذوقه وفهم دلالاته والتأثر به، وبدا ذلك واضحاً فى بكائه تأثراً بما يحمل هذا الشعر من معان قيمة وعظيمة لها تأثيرها فى النفوس.

7 - وفد رجل من ضنة[2] - قال فوفد هذا الضنىُّ إلى عبد الملك بن مروان فقال:

والله ما ندرى إذا ما فاتنا	طلبٌ إليك مَن الذى نَتطلَّبُ
فلقد ضربنا فى البلاد فلم نجد	أحداً سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنا التى عوَّدتنا	أوْ لا فأرشدنا إلى مَن نذهب

---

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ 291/1، الأغانى لأبى فرج الأصبهانى جـ 4543/13.

(2) ضنة: ضنة بالكسر خمس قبائل من العرب. وهى ضنة بن سعد فى قضاعة، وضنة بن عبيد فى عذرة، وضنة بن الحلان فى أسد خزيمة، وضنة بن العاص بن عمرو فى الأزد، وضنة بن عبدالله بن الحارث فى نمير.

فقال عبد الملك: إلىَّ إلىَّ! وأمر له بألف دينار، ثم أتاه فى العام المقبل فقال:

يَرُبُّ الذى يأتى من الخير إنه	إذا فعل المعروفَ زاد وَتَمَّمَا
وليس كبانٍ حين تمَّ بناؤه	تتبعه بالنقص حتى تهدَّما

فأعطاه ألفى دينار، ثم أتاه العام الثالث، فقال:

إذا استمطروا كانوا مغازير فى الندى

يجودون بالمعروف عَوْداً على بدء

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار.[1]

فالخليفة محب للمديح. يَعرف للشعر أثره الطيب فى النفوس ولذا كان كرمه وجوده يتضاعف كلما أتاه هذا الشاعر طالباً لعطائه.

8 - يذكر الرواة أن عبد الملك بن مروان حين سمع هذا البيت:

على مُكثريهم حقُّ مَن يعترِيهُمُ	وعند المقلّين السماحةُ والبذل

قال: ما يضر من مُدح بما مدح به زهير آل أبى حارثة ألا يملك أمور الناس "يعنى الخلافة"، ثم قال: "ما ترك منهم زهير

(1) الأمالى للقالى جـ283/2: 284.

غنياً ولا فقيراً إلا وصفه ومدحه".[1]

وبعد هذه المواقف الجيدة التى جاءت من الخليفة عبد الملك بن مروان تجاه الشعر والشعراء. يتجلى لنا بوضوح ما كان يتمتع به الخليفة من حاسة أدبية ، وذوق رفيع مكنه من تذوق النص وفهمه ، وذلك يدلنا على تأصل الكثير من السمات الأدبية والنقدية فيه.

---

(1) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى جـ147/9. طبعة ساسى.



ثالثا - المحور الثانى
مجالس الخليفة الأدبية والنقدية

فقد كان للخليفة مجالسه الأدبية التى تبدى لنا من خلالها تذوقه للشعر وفهمه والوقوف أمام دور الشعر فى المجتمع العربى فى ذلك الوقت، ونذكر من تلك المجالس:

أولاً – مجالس الخليفة والأخطل شاعر بنى أمية:

عُرف الأخطل بأنه شاعر بنى أمية والمتحدث بلسانهم وذلك لقول عبدالملك بن مروان لكل قوم شاعر. وشاعر بنى أمية الأخطل، ولذلك قدمنا مجالسه الأدبية مع الخليفة على غيره من الشعراء. وتلك هى أهم مجالسه:

1 - لما أنشد الأخطل كلمته لعبد الملك التى يقول فيها:

شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهم   وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قَدَروا.[1]

قال: خذ بيده يا غلام فأخرجه ثم ألق عليه من الخلع ما يغمره. ثم قال: إن لكل قوم شاعراً، وشاعر بنى أمية الأخطل[2].

وبذلك أصبح الأخطل هو شاعر بنى أمية المقدم على غيره من الشعراء على أساس ما تضمنته قصيدته من معانى المديح التى أصبغها على عبد الملك خاصة وبنى أمية عامة.

---

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة، جـ205/1.

(2) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص 263.

ولكن ذلك لم يمنع الخليفة من نقده وتوجيهه والحكم له أو عليه. فقد كان فى كثير من الأوقات يرد أقواله ولا يستحسنها. وقد أنشد يوماً قوله فى الخمر:

فإذا تعاورتِ الأكفُّ زجاجَها نفحتْ فَشَمَّ رياحَها المزكومُ.

فأعجب به إلا أنه قال: أسمعت مثل هذا يا شعبى، فقال له أشعر منه أعشى قيس حيث يقول:

من اللَائى حُمِلْنَ على المطايا كريح المسكِ تستَلُّ الزُّكاما.(1)

فالخليفة يعجب بقول الأخطل فى الخمر، لكنه سرعان ما يسأل الشعبى الذى يقدم عليه ما قاله أعشى قيس. وعندما يتذوق الخليفة قول الشاعرين يقر بما قاله الشعبى فى تقديمه لقول الأعشى. بدليل سكوت الخليفة وعدم تعقيبه. وهذا يدلنا على أن الخليفة كثيراً ما كان ينظر إلى معانى الشعراء ويفاضل بينها مستنداً فى ذلك على ذوقه الأدبى وحسه المرهف.

2 - دخل الأخطل على عبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين. قد امتدحتك فاستمع منى، فقال عبد الملك: إن كنت شبهتنى بالصقر والأسد فلا حاجة لىّ فى مدحتك؟ وإن كنت قلت مثل ما قالت أخت بنى الشريد، يعنى الخنساء، فهات.

---

(1) الأدب الأموى – صور رائعة من البيان العربى للدكتور إبراهيم على أبو الخشب ص 209: 210. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فقال الأخطل: وما قالت يا أمير المؤمنين ؟ قال: هي التي تقول:

وما بلغتْ كَفُّ امرئٍ مُتطاولٍ … من المجد إلا حيثُ ما نلتَ أطولُ

وما بلغ المُهدون في القول مِدحةً … ولو أطنبوا إلا الذي فيك أفضَلُ

وجارُك محفوظٌ منيعٌ بنَجْوَةٍ … من الضّيم لا يبكي ولا يَتذلَّلُ

قال الأخطل: والله لقد أحسنت القول، ولقد قلت فيك بيتين ما هما بدون قولها. فقال: هات: فأنشأ يقول

إذا متّ مات الجودُ وانقطع الندى … من الناس إلا من قليل مُصَرَّد

ورُدَّت أكفُّ السائلين وأمسكوا … من الدين والدنيا بخُلْفٍ مُجدَّدِ.[1]

فالخليفة هنا وقبل أن يستمع من الأخطل يطلب منه أن يكون مديحه على قدر ما قالت الخنساء. حيث أجادت وأحسنت فيما قالت. فوافقه الأخطل على ذلك. وجاء مديحه على قدر ما أجادت الخنساء.

وعندما نتأمل الأبيات التي أعجبت الخليفة في المدح، والتي جاءت على لسان الخنساء، نجد أنها قد أجملت كل صفات الممدوح ومناقبه في كلمات قصيرة موجزة. وصلت به إلى أعلى درجات المجد والفخر. ومن ثم أعجب بها الخليفة ويطلب من الأخطل أن يكون مديحه على قدرها.

---

(1) المصون في الأدب. تحقيق عبد السلام محمد هارون، ص 62: 63.

فالخليفة كره الصور المكررة من التشبيه بالصقر والأسد وغيرها مما اعتاد عليه الشعراء فى المديح.

ولذلك فهو يوجه شاعره الأخطل إلى المديح بالفضائل النفسية والمكارم العظيمة. فيقول: " إن كنت قلت مثل ما قالت أخت بنى الشريد يعنى الخنساء. فهات، وقد فهم الأخطل هذا الدرس من الخليفة ووعاه جيداً، وكان نتيجة ذلك تلك الأبيات التى ذكرها.

والخليفة هنا أخذ على الشعراء عدم التجديد فى تشبيهات مديحهم واكتفائهم بالتشبيهات التقليدية التى لا يظهر فيها جهد أدبى ولا براعة فنية.

وبذلك كان للخليفة " أثره فى النقد العربى بعد ذلك، وعند النقاد قديماً وحديثاً. فقد تأثروا برأيه هنا وذلك بتقديم القيم الخلقية والمعنوية على الصفات المادية. التى تبلى بعكس الخلقية التى تبقى وتخلد. وهذا لون جديد وقع عليه الشاعر بعد توجيه من الخليفة".[1]

3 - جاء فى الموشح أن كثيّر عزة أنشد عبد الملك بن مروان قوله:

فما رجعوها عنوةً عن مودَّةٍ ... ولكن بحدِّ المشرفيِّ استقالها

(1) راجع مناهج البحث البلاغى فى الدراسات العربية للدكتور عبد السلام عبدالحفيظ، ص30، دار الفكر العربى.

فقال للأخطل: كيف تسمع؟

قال: هجاك يا أمير المؤمنين.

قال: بل حسدته،

فقال الأخطل: ما قلت لك يا أمير المؤمنين أحسن من هذا، حيث أقول.

أهلّوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالىَ مُلكٍ لا طريفٍ ولا غَصْبِ

فجعلته لك حقاً. وجعلك اغتصبته[1].

فالخليفة أراد أن يعرف رأى الأخطل شاعره، فيما قاله كثيّر عزة ليتذوق ما قال كل منهما. فهو قد استحسن قول الأخطل عندما ذكره الأخطل بذلك ولأسباب أخرى منها: استتباب الأمن فى حكم جميع الخلفاء قبله حيث تتابع عليها الجميع من غير قتال أو اغتصاب من غيرهم.

وكذلك يوحى التعبير بالشهر الحرام، بما يتلاءم معه من تحريم القتال فيه فكأن الأخطل جعل القتال فى سبيلها يحرم كتحريم الله تعالى له فى الشهر الحرام.

---

(1) الموشح للمرزبانى ص 182. تحقيق وتقديم محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ-1995م.

وإن هذا المسلك يُعد أمراً حتمياً ومألوفاً عند الرعية. فليس هو بأمر جديد عليهم، ولا هو جاء عن طريق القتال والغصب من الأحزاب المناوئة لهم. وفى هذا ما يؤكد ضعف الأحزاب السياسية من حولهم. وانقطاع آمالهم فيها ما دام فى بنى أمية القوية الآمنة المستقرة.

فى حين أن الصورة عند كثيرّ عزة تدل على القوة والشجاعة والعنف. لكنها توحى بعدم الاستقرار والأمن فى البلاد. وأن الأحزاب الأخرى يملكون القوة ولا يعدمون المقدرة على المناوئة والحرب من حين لآخر.

4 - لما قتلت تغلب عُمير بن الحُباب السُّلَمىّ. أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان، والجحَّاف السلمىّ عنده.

ألا سائل الجحّافَ هل هو ثائرٌ   بَقْتلَى أُصيبتْ من سُلَيْم وعامرِ

فخرج الجحَّاف مغضبا حتى أغار على البِشْر، وهو ماء لبنى تغلب وقتل منهم ثلاثة وعشرين رجلاً. وقال:

أبا مالك هل لُمتنى مذْ حَضَضْتنى   على القتل أم هل لامنى لك لائم
متى تدْعُنى أخرى أُجِبْك بمثلِها   وأنت امرؤ بالحق ليس بعالم

فخرج الأخطل حتى أتى عبد الملك بن مروان وقد قال:

لقد أوقع الجحّافُ بالبِشر وقْعةً   إلى الله منها المُشتكى والمُعوَّلُ
فإلا تغيِّرْها قريش بمُلْكها   يكن عن قريشٍ مُستمازٌ ومَزْحَلُ

فقال له عبد الملك: إلى أين يا ابن اللخناء؟

قال: إلى النار " يا أمير المؤمنين؟!

قال: أما والله لو غيرها قلت لضربت عنقك"[1].

فالأخطل لم يرع ما يجب مراعاته عند مخاطبة الملوك حيث هدد عبد الملك وهو الخليفة الذى يملك الدنيا بتركه والانصراف عنه وتلك حماقة كبيرة كان يجب ألا تصدر منه. وذلك هو ما أشار إليه أبو هلال العسكرى بقوله: " ووجه العيب فيه أنه هدد عبد الملك وهو ملك الدنيا بتركه إياه والانصراف عنه إلى غيره، وهذه حماقة مجردة، وغفلة لا يطار غرابها ثم قال:

فلا هدى اللهُ قيساً من ضلالتها ... ولا لَعًا لبنى ذَكْوانَ إذ عَثَرُوا

ضجّوا من الحرب إذ عضّت غوارِبَهم ... وقيسُ عيلانَ من أخلاقها الضَّجَر.

فقال له عبد الملك: لو كان الأمر كما زعمت لما قلت: لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة."[2].

ومن ثم يتضح لنا أنه قد لا يظهر فى تلك البيئة نقد ذوقى يعتمد على التقاليد الرسمية فى مخاطبة الخلفاء.

---

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ492/1.

(2) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى، ص 103، حققه الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1404هـ-1984م.

وقد كان هذا النقد يوجه الشعراء إلى الالتزام بحدود خاصة فى شعرهم الذى يقولونه فى مخاطبة الخلفاء أو فى مجالسهم. ولا شك أن هذه البدايات الذوقية فى النقد بدأت تظهر على يد الخليفة عبد الملك بن مروان فى توجيهاته للشعراء. ولا شك أنها تتفق مع ما أشار إليه ابن رشيق القيروانى حيث يقول:

" وسبيل الشاعر إذا مدح ملكاً – أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكر الممدوح وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية غير مبتذلة ولا سوقية، ويتجنب مع ذلك التقصير والتجاوز والتطويل، فإن للملك سآمة وضجراً ربما عاب من أجلها مالا يعاب وحرم من لا يريد حرمانه"[1].

5- قال الشعبى: دخلت على عبد الملك وعنده رجل لا أعرفه، فالتفت إليه عبد الملك فقال: مَن أشعر الناس؟ فقال: أنا، فأظلم ما بينى وبينه . فقلت: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فتعجب عبد الملك من عجلتى! فقال: هذا الأخطل، فقلت أشعر منه الذى يقول:

هـذا غـلامٌ حسـنٌ وجْهُـهُ	مُسْتَقْبَلُ الخيرِ سريعُ التَّمامْ
للحارث الأكبر والحارث الأ	صغر والأعرج خيرِ الأنامْ
ثـمّ لِهِنْـد وَلِهِنْـدٍ وقـد	يُنْجَعُ فى الروضاتِ ماءُ الغمامْ
سِـتَّةُ آبـائِهم مـا هُـمُ	همْ خيرُ من يشربُ صفْوَ المُدامْ

(1) العمدة لابن رشيق القيروانى، جـ2/128.

فقال الأخطل: صدق يا أمير المؤمنين، النابغة أشعر منى"[1].

هذا مجلس من مجالس الخليفة عبد الملك وشاعره الأخطل. وكان فيه الشعبى. وهو لا يعرف الأخطل حينئذ. ودار الحديث بين الخليفة والأخطل، والشعبى جالس.

وعندما سمع الشعبى قول الأخطل " أنا أشعر الناس." أظلم ما بينهما ، وفى هذا ما يدل على أن الشعبى غير راض عما قاله الأخطل. ومن ثم كان سؤاله من هذا الذى يدعى أنه أشعر الناس؟

فالشعبى لم يصبر على هذا الزعم. لدرجة أنه لم يراع أصول الكياسة فى التعامل مع الخلفاء، حيث إنه لم يصبر حتى يسأله الخليفة عن رأيه فى ذلك الذى يزعم أنه أشعر الناس ويعلن تفوقه على كل الشعراء، ثم نجده يسوق نموذجاً للنابغة من شعره فى الفخر بالآباء والأجداد. قاله صاحبه فى القديم، فهو يلائم ما تواضع عليه القوم من تمجيد الأصول. وكل ذلك يدلنا على أن هذه المعانى فى الفخر مازالت مرعية عند هؤلاء القوم. وفى عصرهم الذى يعيشونه.

وكذلك نجد أن فى صمت الخليفة دليلاً على أنه يوافقه فى الرأى ولذلك لا يجد الأخطل مفراً من الإقرار بما اتفق عليه كل من الخليفة والشعبى.

---

(1) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة، جـ1/164.

وقد يكون ذلك مجرد مجاراة من الأخطل للموقف، وقد يكون عن اقتناع أيضاً. فحال الأخطل لا تبين هذا أم ذاك. أما الخليفة والشعبى فقد عرفنا نقدهما. إنه يتكئ على القديم ويحتفى به وليس معنى هذا أن الخليفة يلازم دائماً ترجيح القديم والانتصاف له. فهو وإن قبل هذا المعنى فى شعر النابغة أو غيره، إلا إننا نجده ينفر منه ولا يقبل بالتشبيهات القديمة فى المدح.

ولذا نجد أن الاتجاه فى تذوق الخليفة يقوم على الإنصاف للشعر القديم والمعاصر وذلك لأن العبرة بالجودة وإتقان الفن أو الصنعة لا فى القديم لقدمه ولا فى المعاصر لمعاصرته. وهذا ما يؤكده ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء حيث يقول: " فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه فى متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه، أو أنه رأى قائله.. فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله أو حداثة سنه. كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه"[1].

وهكذا يتفق الخليفة عبد الملك بن مروان فى تذوقه وقبوله لما يقوله الشعراء وما يستخدمونه من معانٍ وتشبيهات مع ما ذهب إليه ابن قتيبة، أو بعبارة أدق يقر ابن قتيبة بما ذهب إليه عبد الملك بن مروان.

---

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ10:11/1.

ثانياً – مجالس الخليفة والشاعر جرير بن عطية:

فى الحقيقة أن من يراجع تراثنا الأدبى والنقدى يجد أن للخليفة عبدالملك ابن مروان. والشاعر جرير بن عطية مجالس كثيرة، أفاد منها الأدب العربى ونقده، أيما إفادة. ودلت بوضوح على ما اتسم به الخليفة من تذوق أدبى ونقدى فهو صاحب ذوق أدبى رفيع، وحس نقدى مرهف، وبصيرة نافذة يسمو بها على غيره من خلفاء بنى أمية.

ومما يدلنا على ذلك ما يرويه صاحب الأغانى حيث يقول:

1 - قال عبد الملك أو ابنه الوليد لجرير:

من أشعر الناس؟ قال: ابن العشرين. قال فما رأيك فى ابنىّ أبى سُلمى؟ قال: كان شعرهما نيراً يا أمير المؤمنين. قال: فما تقول فى امرئ القيس؟ قال: أتخذ الخبيث الشعر نعلين، وأقُسم بالله لو أدركته لرفعت ذلاذله. قال: فما تقول فى ذى الرُّمة؟ قال: قَدَر من طريف الشعر وغريبه وحَسَنه على ما لم يقدر عليه أحد. قال: فما تقول فى الأخطل؟ قال: ما أخرج لسان ابن النصرانية ما فى صدره من الشعر حتى مات. قال: فما تقول فى الفرزدق؟ قال: فى يده والله يا أمير المؤمنين نبعة من الشعر قد قبض عليها. قال: فما أراك أبقيت لنفسك شيئاً؟ قال: بلى والله يا أمير المؤمنين؟ إنى لمدينة الشعر التى منها يخرج وإليها يعود، نسبتُ فأطرْيت وهجوت فأرديتُ. ومدحت فسَّنيْتُ. وأرملت فأغرزت. ورجزت فأبحرت. فأنا قلت فى ضروب

الشعر كلّها ، وكلُ واحد منهم قال نوعاً منها ، قال: صدقت." [1]

ونلاحظ أن هذا النوع من المجالس الأدبية له فائدة عظيمة ، حيث يطرح الخليفة بعض الأسئلة على من يجلس معه. فالخليفة يريد معرفة رأى جرير فى عدد من الشعراء القدامى والمعاصرين له ، وجاء ذلك عن طريق سؤال جرير عن رؤيته لهؤلاء الشعراء ولأشعارهم. وكان جرير يبين لكل واحد منهم مكانته ومنزلته فى الشعر وبين الشعراء. ثم جعل نفسه فوقهم جميعاً وذلك لأنه قال فى كل ضروب الشعر المختلفة فى حين قال كل واحد منهم فى ضرب معين من الشعر. وقد أقره الخليفة على ذلك بقوله " صدقت ".

ويدلنا ذلك على تذوق الخليفة الأدبى والنقدى، فهو على علم بحال هؤلاء الشعراء وعلى معرفة جيدة بأشعارهم. مما يدلنا على سعة روايته وكثرة حفظه لشعر هؤلاء الشعراء القدامى منهم والمعاصرين ولذا كان تصديقه لحكم جرير ناتجاً عن حسن تذوقه وفهمه لأشعارهم جميعاً.

2 - ذكر المرزبانى فى الموشح: " قال الأخطل لعبد الملك أيزعم ابن المراغة أنه بلغ مدحتك فى ثلاثة أيام. وقد أفنيت بمدحتك فى قصيدة حولا ، فما بلغت كل الذى أردت ؟ فقال عبد الملك: فأنشدنى، فأنشده:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

(1) الأغانى لأبى فرج الأصبهانى، جـ2799/8.

فقال عبد الملك: بل منك إن شاء الله – تطيرا– .. فجعله الأخطل فراحوا اليوم أو بكروا.

ومن ذلك أيضاً ما جرى لجرير عند عبد الملك لما أنشده:

أتصحو أم فؤادك غير صاح؟

فتشاءم عبد الملك وقال: يا ابن الفاعلة. بل فؤادك.[1]

وذكر بعض أهل العلم أنه لما انتهى من القصيدة إلى قوله:

وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنين بنا   لما أتاك ببطن الغُوطة الخبرُ

فقال عبد الملك: بل الله أمدني.[2]

ونلاحظ أن الذى دار بين كل من الشاعرين الأخطل وجرير، وبين الخليفة عبد الملك بن مروان، لا خلل فيه من الناحية الفنية ، ولكن قوة ملاحظة الخليفة وتذوقه للمعانى والألفاظ هى التى لفتت انتابهه إلى مطالع تلك القصائد فأولاها عناية خاصة ونظرة فاحصة. ومن ثم جاءت رؤيته النقدية لها. فكان اعتراضه على مطلع قصيدة الأخطل تطيراً. ولذا عدل الأخطل مطلع قصيدة ليتناسب مع ما يراه الخليفة. وأما اعتراضه على مطلع قصيدة جرير فقد جاء تشاؤما من قوله "أتصحو أم فؤادك غير صاح؟" ، ولذا جاء قوله " بل فؤادك".

---

(1) الكشكول تحقيق الطاهر أحمد الزاوى جـ427/1. الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1998م.

(2) الموشح للمرزبانى، ص 174: 175.

وكذلك كان اعتراضه على قوله:

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

رافضاً أن يكون لغير الله فضل عليه، فالنصر الذى حققه على عدوه كان بفضل الله سبحانه.

والخليفة محق فى كل ما وجهه للشاعرين، وذلك لأن مثل هذا الكلام الذى صدر منهما لا يجدر ولا يليق أن يوجه للخليفة، لأنه خال من الأدب والتوقير الذى يجب أن يلتزم به الشاعر فى مخاطبة الخلفاء.

وكذلك نجد أن ما رآه الخليفة يتفق مع ما نادى به النقاد بعد ذلك من أنه يجب العناية ببداية القصائد وحسن استهلالها. وذلك هو ما عرف عند النقاد بحسن المطلع أو براعة الاستهلال.

3- يروى المرزباني أن جريراً قال أبياتاً فى مدح الخليفة عبدالملك ابن مروان. والتى زادت قريحة الشاعر فيها على عقله ومنها البيت الذى يقول فيه:

هذا ابن عميّ فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلىّ قطينا

فقيل له: يا أبا حرزة لم تصنع شيئاً، عجزت أن تفخر بقومك حتى تعديت إلى ذكر الخلفاء. وقال له عبد الملك جعلتنى شرطياً لك أما

لو قلت لو شاء ساقكم إلىّ قطينا لسقتهم إليك عن آخرهم."[1]

وملاحظة الخليفة هنا على الشاعر تندرج ضمن ما ذكرته فى الصفحات السابقة من حيث طريقة مخاطبة الخلفاء وما الذى يجب أن تكون عليه مراعاة التقاليد الرسمية فى مخاطبتهم أو ذكرهم فى شعرهم، ولذلك جاء قول الخليفة" أما لو قلت لو شاء ساقكم إلىّ قطينا ، لسقتهم إليك عن آخرهم". فالمعيب هنا أن الشاعر جعل الإرادة له، لا للخليفة . وهذا لا شك عيب فى مخاطبة الخلفاء، فكأن الخليفة شرطىٌّ عنده وهو قائده الذى يأمره.

4 - ومما يدلنا على ذوق الخليفة الأدبى وفهمه للشعر وتذوقه لمعانيه وحسن توجيهه للشعراء وحكمه على بعض أبياتهم .
قوله: " أمدح بيت قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح[2]

فالخليفة بتذوقه وحسه المرهف قدم بيت جرير السابق على غيره فى المدح. وذلك بقوله " أمدح بيت". وإن كان هذا الحكم حكم موجز غير مسبب، ولكنه ناشئ عن تذوق الخليفة للشعر وفهمه لدلالة النص فهو ينظر إلى المعانى ويفاضل بينها ، والمتأمل فيه يقرّ بحسن تذوق الخليفة وفهمه لمعانى الشعر وما يجب أن يكون عليه المديح.

---

(1) الموشح للمرزبانى، ص 158.

(2) المصون فى الأدب. تحقيق عبد السلام محمد هارون، ص 20: 21.

5 - ذكر بعض الرواة أن الحجاج أوفد ابنه محمد بن الحجاج إلى عبدالملك وأوفد إليه جريراً معه ووصاه به وأمره بمسألة عبد الملك فى الاستماع منه، ومعاونته عليه.

فلما وردوا استأذن له محمد على عبد الملك فلم يأذن له. وكان لا يسمع من شعراء مضر ولا يأذن لهم لأنهم كانوا زُبيريّة. فلما استأذن له محمد على عبد الملك ولم يأذن له أعلمه أن أباه الحجاج يسأله فى أمره ويقول: إنه لم يكن ممن والى ابن الزبير ولا نصره بيده ولا لسانه. وقال له محمد: "يا أمير المؤمنين إن العرب تتحدث أن عبدك وسيفك الحجاج شفَع فى شاعر قد لاذ به وجعله وسيلته ثم رددته، فأذن له فدخل، فاستأذن فى الإنشاد، فقال له: وما عساك أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج! ألست القائل:

مَن سَدَّ مُطَّلَعَ النفاق عليكم ... أم مَنْ يصولُ كصولة الحجاج

إن الله لم ينصرنى بالحجاج وإنما نصر دينه وخليفته، أو لست القائل:

أم من يَغار على النساء حفيظةً ... إذ لا يَثِقْنَ بغَيْرةِ الأزواج

يا عض كذا وكذا من أمه! والله لهممت أن أطير بك طيرة بطيئاً سقوطها، أخرج عنى. فأخرج بشَرّ.

فلما كان بعد ثلاث شفع إليه محمد لجرير. وقال له: يا أمير المؤمنين إنى أديت رسالة عبدك الحجاج وشفاعته فى جرير فلما

أذنت له خاطبته بما أطار لُبَه منه وأشمت به عدّوه، ولو لم تأذن له لكان خيراً له مما سمع. فإن رأيت أن تهب كل ذنب له لعبدك الحجاج ولىّ فافعل. فأذن له فاستأذنه فى الإنشاد فقال: لا تنشدنى إلا فى الحجاج، فإنما أنت للحجاج خاصة. فسأله أن ينشده مديحه فيه فأبى وأقسم ألا ينشده إلا من قوله فى الحجاج فأنشده. وخرج بغير جائزة. فلما أزف الرحيل قال جرير لمحمد: إن رحلتُ عن أمير المؤمنين ولم يسمع منى ولم آخذ له جائزة سقطتُ آخر الدهر، ولست بارحاً بابه أو يأذن لىّ فى الإنشاد. وأمسك عبد الملك عن الإذن له. فقال جرير: ارحل أنت وأقيم أنا. فدخل محمد على عبد الملك فأخبره بقول جرير واستأذن له وسأله أن يسمع منه. وقبل يده ورجله. فأذن ل.، فدخل فاستأذن فى الإنشاد فأمسك عبد الملك فقال له محمد: أنشد ويحك! فأنشده قصيدته التى يقول فيها:

ألستم خيرَ من ركب المطايا   وأندى العالَمين بُطُونَ راح [1]

فتبسم عبد الملك وقال: كذلك نحن — وما زلنا كذلك — ثم اعتمد على ابن الزبير فقال:

دعوتَ الملحدين أبا خُبَيْب   جماحاً هل شُفيتَ من الجماح
وقد وجدوا الخليفةَ هبْرزيّاً   ألَفَّ العيص ليس من النواحى
وما شجراتُ عيصِكَ فى قريش   بعشّاتِ الفروع ولا ضواحى

---

(1) وهى القصيدة التى مطلعها:

أتصحو أم فؤادك غير صاح   عشية همّ قوم بالرواح

ويقال إنه عند سمعها قال: بل فؤادك أنت.

قال: ثم أنشده إياه حتى أتى على ذكر زوجته فيها فقال:

تعـَّـزتْ أمُّ حَــزْرَةَ ثــم قالــت	رأيـت المـوردين ذوى لقــاح
تعلّــلْ وهـــى ســـاغيةٌ بنيهـــا	بأنفـاس مـن الشّـيم القَـرَاح

فقـال عبـد الملـك: هـل ترويهـا مائـةِ لِقحـة؟ فقـال: إن لم يُروهـا ذلك فلا أرواها الله! فهل إليها – جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين – من سبيل؟ فأمر له بمائة لِقحة وثمانيةٍ مـن الرّعـاء. وكانـت بين يديه جامات من ذهب، فقـال لـه جريـر: يـا أمير المـؤمنين أتـأمر لىّ بواحـدة منهن تكون مُحلبـاً؟ فضحك ونَدَس إليـه بواحـدة منهن بالقضيب. وقـال: خـذها لانفعتـك! فأخـذها وقـال: بلـى والله يـا أمـير المـؤمنين لينفعنى كلٌّ ما منحتنيه. وخرج من عنده. قال وقد ذكـر ذلـك جريـر فى شعره فقال يمدح يزيد بن عبد الملك:

أعطوا هُنَيْدَةَ يحدوها ثمانيةٌ	ما فى عطائهمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ[1]

ويتضح لنا مما سبق رعاية الخليفة وعنايته بالمجالس الأدبية التـى يعقـدها ولاتـه، وتذوقـه وفهمـه لكـل مـا يقـال فيهـا مـن أشـعار. لدرجة أنه قال لجرير: " إنمـا أنـت للحجـاج خاصة". وذلك يدلنا على فهمه وتذوقه للشعر الذى قاله جرير مادحاً به الحجاج.

---

(1) راجع:

ذيل الأمالى للقالى ص42: 45، المرشد فى فهم أشعار العرب وصناعتهم لعبد الله الطيبب، ص53، الطبعة الثانية، دار الفكر، 1970م. وكذلك الأغـانى لأبـى الفرج الأصبهانى جـ8/2812: 2814.

وكذلك نلاحظ أنفة الخليفة وكبرياءه، وترفعه عن طلب المديح لنفسه. على مثال ما مُدحَ به الحجاج. وفى ذلك دعوة ضمنية للشاعر وحث له على تجويد شعره وتنقيحه وأعمال فكره وعاطفته حتى يخرج الشعر جيداً فيرضى ذوق الخليفة الأدبى ويشبع رغبته. وذلك الذى فهمه جرير. ومن ثم كانت مدحته التى بلغت الجودة فأعجب بها الخليفة وعبر عن ذلك بتبسمه وقوله – كذلك نحن– وذلك لما اشتملت عليه من قيم فنية رائعة، وكذلك يتضح لنا حرص الشاعر على إسماع الخليفة شعره بعد أن جود فيه حتى يرضى ذوق الخليفة الأدبى الذى يتذوق الشعر ويفهم دلالة النص.

ثالثاً – مجالس الخليفة والشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات:

للشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات مجالسه الأدبية مع الخليفة عبدالملك ابن مروان على الرغم من أنه كان شاعر الزبيريين ولسانهم المتحدث باسمهم.

1- ذكر ابن قتيبة أنه " لما قتل مصعب وصار الأمر إلى عبد الملك بن مروان أتى عبيد الله بن قيس الرقيات، عبدَ الله بن جعفر يستشفع إليه.

فقال له عبد الله بن جعفر: إذا دخلت معى على عبد الملك فكل أكلاً يستبشعه عبد الملك بن مروان. ففعل. فقال له: من هذا يا ابن جعفر؟ قال: هذا أكذب الناس إن قتل! قال: ومن هو؟ قال: الذى

يقول:

ما نَقموا من بنى أميةَ   إلا أنهم يحلُمون إن غضبوا
وأنهم مَعْدِن الملوكِ فلا   تصلحُ إلا عليهِمُ العربُ.

فقال عبد الملك قد عفونا عنه، ولا يأخذ مع المسلمين عطاء، فكان عبد الله بن جعفر إذا خرج عطاؤه أعطاه".[1]

وهذا الذى ذكره ابن قتيبة يدلنا على تقدير الخليفة عبد الملك بن مروان للشعراء وحرصه على الاستماع إليهم. وحتى وإن كانوا قبل ذلك ممن ساندوا أعدائه.

فهو يفهم الشعر ويتذوقه جيداً ولذا فهو حريص على كسب ود الشعراء واستمالتهم إليه والعفو عنهم.

2- أنشد عبيد الله بن قيس الرقيات عبد الملك بن مروان بعد أن صفح عنه وأمنه:

اسمع أمير المؤمنين (م)   لمدحتى وثنائها
أنت ابن معتلج البطا   ح كُديدها وكُدائها
ولبطن عائشة التى   فضلت أُرومُ نسائها

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة جأ546/1: 457.

فلم تعجب الخليفة عبد الملك كلمة البطن فى الشعر، وإن كان يرويها رجال الأنساب وآثر عليها كلمة "النسل". وهذا يدل على ذوق رفيع وأدب جم يتحلى به الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان فى تخيره للألفاظ، وتفضيل بعضها على بعض.

والحق فى ذلك أن رأى الخليفة فى دلالة كلمة النسل أعف وأطهر من التعبير بكلمة البطن للمرأة – وهى عورة ينبغى أن يترفع الشاعر عنها، وخاصة إنها من حرمات الخليفة فلا يجب المساس بها أو القرب منها.

وكذلك نجد فى التعبير بكلمة النسل روعة فى التصوير فهى رافد من روافد التصوير الأدبى وعناصره للدلالة على استمرار الخلافة الأموية فى نسله وأولاده وأولياء عهده الوليد وهشام ويزيد وسليمان وغيرهم، ولا شك أن ذلك أكثر مدحاً وإشادة بالدولة الأموية.[1]

3- أنشد عبيدُ الله بن قيس الرقيات عبدَ الملك بن مروان قوله:

إن الحوادث بالمدينة قد	أَوْجَعْنَنِى وَقَرَعْنَ مَرْوَتِيَهْ
وَجَبَبْنَنِى جَبَّ السَّنام ولم	يُتْرُكنَ رِيشًا فى مَنَاكِبِيَهْ

(1) راجع: تاريخ النقد الأدبى عند العرب. طه أحمد إبراهيم ص 36 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1937م. وكذلك: البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر للدكتور على على صبح، المكتبة الأزهرية للتراث، 1998م.

فقال له: أحسنت لولا أنك تخنثت فى قوافيك ! فقال: ما عدوتُ كتاب الله "مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ "[1] وقرعن مروتيه من قول أبى ذؤيب.

حتى كأنى للحوادث مَرْوَةٌ بَصَفا المُشَرَّق كلَّ يوم تُقْرَعُ[2]

ونلاحظ أن الخليفة فى تلك الأبيات التى صدرت من عبيد الله بن قيس الرقيات قد نظر إلى موسيقى الشعر فعاب عليه بعض قوافيه لما ظهر فيها من رخاوة وليونة ينزلان بقيمة الشعر الصوتية وموسيقاه. ومن ثم قال له: أحسنت إلا أنك تخنثت فى قوافيك.! فقال: ما عَدَوت قول الله "ما أغنى عنى ماليه......"

ويُعد الناقد أبو هلال العسكرى هذا من قبيل ما عيب فى القوافى وذلك "لأن فاصلة الآية حسنة الموقع، وفى قوافى شعره لين."[3]

ولا شك أن هذا الذى ذهب إليه أبو هلال العسكرى يتفق مع رؤية الخليفة عبد الملك بن مروان فيما عابه على الشاعر. وهذا يدلنا بوضوح على ذوق الخليفة الأدبى الرفيع الذى مكنه من توجيه تلك النقدات القيمة للشاعر.

---

(1) سورة الحاقة، الآية 28، 29.

(2) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ547/1.

(3) كتاب الصناعيتين، ص471.

4- وعندما مدح عبيدالله بن قيس الرقيات، الخليفة عبدالملك بن مروان بقوله:

يأتلق التاج فوقَ مفرِقه على جبينٍ كأنه الذهب

"غضب عبد الملك وقال: قد قلت فى مصعب:

إنما مُصعبٌ شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظّلماءُ

فأعطيته المدح بكشف الغمم، وجلاء الظلم .... وأعطيتنى من المدح مالا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة".[1]

فمن الأفضل أن يتجه الشعر إلى الفضائل يخلدها فى الممدوح من العفة والشجاعة والكرم والسماحة والحلم والعزم والمروءة وشرف النفس وعلو الهمة، حتى لا يكون قرض الشعر مظنة أنه منبعث عن النفاق أو نابع من غير الشعور الحقيقى.[2]

وهذا هو الذى اعتقده الخليفة عبد الملك بن مروان حين لمح فتور عاطفة الشاعر نحوه.

---

(1) الكامل فى اللغة والأدب للمبرد جـ1/399. مكتبة المعارف، بيروت. وراجع أيضاً: كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص 104.

(2) راجع: أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى ص 218، طبعة نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1979م.

فالشاعر كان فى معتقده أن بنى أمية قد اغتصبوا الملك والخلافة، ولكن الشاعر امتدحهم بعد أن استقر لهم السلطان، خوفاً منهم وطلباً للأمان عندهم، ولكن حبه وهواه ما زالا بعيدين عنهم متعلقين بغيرهم.

وقد يكون الخليفة قد أحس بما فى كلمات الشاعر من غمز ولمز، فالملك والتاج والذهب هو ما يرومه بنو أمية. وقد يكون ذلك أو غيره هو الذى أغضب الخليفة، وإن كان بعض النقاد يرى أن غضب الخليفة كان لما فى المديح من "النعومة والرقة وجمال الوجوه، وهى صفات أقرب إلى الصبغة النسوية، وإلى التخنث منها إلى الرجولة المكتملة".[1]

وبذلك يتضح لنا أن الخليفة عبد الملك بن مروان صاحب رؤية فنية تقايس بين الشعراء وتوازن بين معانيهم وصورهم، ويفضل بعضا على بعض متفقاً فى ذلك مع ما ذهب إليه أبو هلال العسكرى حيث يقول: "ومن عيوب المديح عدول المادح عن الفضائل التى تختص بالنفس من العقل والعفة والعدل والشجاعة، إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة".[2]

---

(1) فن المديح لأحمد أبو حاقة ص 34، طبعة الشرق الجديد، بيروت.

(2) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى، ص 104.

رابعاً – مجالس الخليفة والشاعر الفرزدق:

الفرزدق من فحول شعراء العصر الأموى، ومن ثم كانت له مجالسه مع الخليفة عبد الملك بن مروان والتى نذكر منها :-

1 - اجتمع فى مجلس عبد الملك بن مروان جرير والفرزدق، فقال الفرزدق: النوار بنتُ مجاشع طالقٌ إن لم أقل بيتاً لا يستطيع ابنُ المُراغةِ أن ينقضه، ولا يجد فى الزيادة عليه مذهباً. فقال عبد الملك: ما هو؟ قال:

فإنى أنا الموتُ الذى هُوَ واقعٌ بنفسك فانظرْ كيف أنت مُزَاوِلُهْ
وما أحدٌ يا ابن الأتانِ بوائلٍ من الموت إن الموتَ لا شكّ نائِلُهْ

فأطرق جرير قليلاً: ثم قال: أم حَزْرة طالقٌ منه ثلاثاً إن لم أكن نقضته وزدت عليه! فقال عبد الملك: هات! فلقد طلّق أحدُكما لامحالة! فأنشده:

أنا البدرُ يغشى نورُ عينَيكَ فالتمس بكفّيكَ يابن القَين هل أنت نائلُهْ
أنا الدهر يُفنى الموت، والدهرُ خالدٌ فجئنى بمثل الدهرِ شيئاً يُطاوله

فقال عبد الملك: فَضَلك والله يا أبا فِراس، وطلّق عليك[1].
فبانت النوار من الفرزدق وندم عليها وقال فى ذلك:

---

(1) دراسات فى نقد الأدب العربى للدكتور بدوى طبانة، ص 107، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

ندمتُ نَدامةَ الُكسَعىِّ لما ... مضــتْ منّــى مُطَلّقــةً نَــوارُ

وكانت جَنَةً فخرجتُ منها ... كـآدمَ حـين أخرجـه الضـِّرار.[1]

فالخليفة قد أدرك ببصيرته الأدبية وفهمه النقدى، وتفاضله للألفاظ وإدراكه للمعانى أن الدهر يصارع الموت فى كل حين، فالموت يقع عليه بين حين وآخر حتى قيام الساعة، فالدهر أقوى من الموت يأتى لكل إنسان لينتهى به ويبدأ مع غيره وهكذا بينما الدهر ثابت خالد مع الناس الأحياء ومع الموتى كل يوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولذا كان حكم الخليفة " فضلك والله أبا فراس وطلق عليك".

2 - اجتمع بحضرة عبد الملك بن مروان كل من الأخطل والفرزدق وجرير؛ فأحضر بين يديه كيساً فيه خمسمائة دينار، ثم قال: ليقل كلٌّ واحد منكم بيتاً فى مدح نفسه، فأيكم غلب فله الكيس، فبدأ الفرزدق فقال:

أنا القَطَرانُ والشعراءُ جَرْبَى ... وفى القَطرانِ للجربى شِفَاءُ

---

(2) طبقات فحول الشعراء لابن سلام، جـ317/1.

فقال الأخطل للفرزدق:

فإن تك زقٌّ زاملة فإنى أنا الطاعونُ ليس له دواءُ

فقال جرير لهما :

أنا الموتُ الذى آتى عليكم فليس لهاربٍ منّى نَجاءُ

فقال عبد الملك: فلعمرى إن الموت يأتى على كل شىء وقضى لجرير.

فالخليفة هنا يستمع إلى ثلاثة من فحول الشعراء فى عصره، ويوازن بين ألفاظهم ومعانيهم ليختار أكثرها دلالة وقدرة على تأدية المعنى. ثم جاء تفضيله لجرير وتقديمه عليهم. وقد كان الخليفة محقاً فى رأيه وذلك لأن الموت يأتى على كل شىء. حقاً![1]

3 - روى الأصمعى عن خالد بن كلثوم أن عبد الملك بن مروان قال للفرزدق: " من أشعر الناس فى الإسلام؟ قال: كفاك بابن النصرانية إذا مدح"[2]

وواضح من سؤال عبد الملك هذا أنه يحاول أن يتعرف إلى رأى شاعر كبير كالفرزدق فى هذه القضية التى كانت تشغل أذهان الكثيرين.

---

(1) راجع: دراسات فى نقد الأدب العربى للدكتور بدوى طبانة، ص 107: 108. وكذلك تاريخ النقد الأدبى للدكتور عبد العزيز عتيق، ص 211: 212. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

(2) الأغانى لأبى فرج الأصبهانى، جـ7/369.

ثم يجيب الفرزدق بأن الأخطل هو أشعر الناس فى الإسلام فى المدح.

ولتلك الإجابة مغزاها، فالفرزدق يفضل الأخطل على شعراء العصر الإسلامى، وقد يكون بتلك الإجابة أراد أن يتملق الخليفة لأنه يعلم جيداً أن الخليفة يروقه مدح الأخطل، ولذا فهو يفضله على غيره من الشعراء فهو الذى خلع عليه لقب شاعر بنى أمية، وقد يكون محقاً أيضاً. فالأخطل كان يجيد هذا الفن وخاصة مدح الملوك والخلفاء.

خامساً – مجالس الخليفة والشاعر كثيّر عزة:

للشاعر كثيّر عزة مكانته ومنزلته الشعرية عند الخليفة عبد الملك بن مروان. فالكثير من الأخبار تشير إلى أن عبد الملك كان يعجب بشعر كثيّر عزة ويفضله. فقد روى النضر بن عمر قال: " كان عبد الملك بن مروان يُخرج شعر كثيّر إلى مؤدب ولده مختوماً يُرَوّيهم إياه ويردُّه".

ورُوى أن كثيراً قال لعبد الملك: " كيف ترى شعرى يا أمير المؤمنين؟ فقال: أراه يسبق السِّحر ويغلب الشعر[1]".

فالخليفة عبد الملك بن مروان كان يفضل كثير عزة على غيره من الشعراء.

---

(1) الأغانى لأبى فرج الأسبهانى، جـ2143/9.

هذا عن الشاعر، أما عن مجالس الخليفة معه فهى كثيرة، ونذكر منها:

1 - إن عبد الملك بن مروان سُمر ليلة وعنده كثيّر عزة. فقال له: أنشدنى بعض ما قلت فى عزة، فأنشده هذا البيت:

هممْتُ وهمّت ثم هابتْ وهابَها   حياءً ومثلى بالحياء حقيقُ

فقال عبد الملك: أما والله لولا بيت أنشدتنيه قبل هذا لحرمتك جائزَتك. قال: ولمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لأنك شركتها معك فى الهيبة ثم استأثرت بالحياء دونها، قال: فأى بيت عفوت به عنى يا أمير المؤمنين؟ قال: قولك

دعونى لا أريدُ بها سواها   دعونى هائماً فيمن يَهيم[1]

والخليفة هنا عاب على الشاعر وصف نفسه بصفات لايتصف بها عاشق. فقد مدح الشاعر نفسه فى البيت أكثر مما تغزل فى محبوبته وذلك عندما وصف نفسه بالمهابة والحياء. وتلك هى صفات المحبوبة لا صفات المحب أو العاشق. ثم ماذا أبقى لمحبوبته بعد أن استأثر لنفسه بالحياء دونها، وهو أجمل ما تتزين أو تتصف به الفتاة، أو يصفها محبوبها به؟

---

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى جـ163/3. طبعة بولاق.

ولا شك أن هذا التذوق الذى جاء من الخليفة لما صدر من الشاعر. تذوق أديب بارع، وفهم خبير بأحوال النفوس قادر على التعمق فى فهم معانى الشعر وتذوقها. وهو فى تذوقه هذا يتفق مع آراء الشعراء والأدباء والنقاد من أمثال أبى تمام وأبى هلال العسكرى وقدامة بن جعفر. الذى يرى أن النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة، وبما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضادّ التحافظ والعزيمة، ووافق الانحلال والرخاوة."[1]

2 - عندما سمع عبد الملك بن مروان قول كثير عزة:

فقلت لها يا عَزُّ كلُّ مصيبةٍ إذا وطئت يوماً لها النفسُ ذلّت

علق عليه قائلاً: لو كان فى تقوى وزهد لكان أشعر الناس، وكذلك علق على قوله:

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومةً لدينا ولا مقْليَّةً إن تَقلّتِ

لو كان هذا فى وصف الدنيا لكان أجود".

---

(1) راجع: قدامة بن جعفر والنقد الأدبى للدكتور بدوى طبانة ص 354، الطبعة الثانية.

ويدلنا هذا على ما كان يتمتع به الخليفة من تذوق أدبى مكنه من أن يتذوق هذا الشعر الذى صدر عن كثيرّ عزة، ويرى فيه أنه لو كان فى غير هذا الموضع لكان أجود دون أن يذكر سبباً لتلك الجودة، فهو مجرد فهم للمعانى والألفاظ وبيان لدلالتها.

3 - جاء فى الأغانى أن عبد الملك بن مروان قال لكثير عزة: " من أشعر الناس اليوم يا أبا صخر؟ قال: من يروى أميرُ المؤمنين شعره. فقال عبدالملك: أما إنك لمنهم. وقال كثير لعبد الملك كيف ترى شعرى يا أمير المؤمنين؟ قال: أراه يسبق السّحر ويغلب الشعر. وكان عبدالملك بن مروان يُخْرِجُ شعرَ كثير إلى مؤدب ولده مختوماً يرِّويهم إياه ويردّه."[1]

فالخليفة يرى أن كثير عزة أشعر الناس. ويصف شعره بأنه يسبق السحر ويغلب الشعر. ولا شك أن لرأى الخليفة قيمته وأهميته وذلك لما عُرف عنه من تذوقه للشعر ومعرفته للشعراء. وكثيرّ عزة جدير بتلك المكانة لما يتمتع به من شاعرية فذة.

4 - " دخل كثيرّ عزة على عبد الملك فأنشده، وعنده رجل لا يعرفه . فقال عبد الملك للرجل: كيف ترى هذا الشعر؟ قال: هذا شعر حجازى، دعنى أضْغَمْه لك ضَغْمه. قال كثيرٌ: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الأخطل. قال فالتفت إليه كثيرٌ فقال له: هل ضغمت الذى يقول:

---

(1) الأغانى لأبى فرج الأسبهانى جـ2143/9.

والثَّغلبىُّ إذا تنحنح للقِرَى حــكَّ اسْــتَه وتمثَّــلَ الأمثــالا
تلقاهمُ حُلماء عن أعدائهم وعلى الصديق تراهمُ جُهَّالا ؟[1]

فالشاعر الأخطل يريد أن يقلل من شأن شعر كثير عزة بحضرة الخليفة، ويتضح ذلك من قوله "دعنى أضغمه ضغمه" ولكن الشاعر كثيرٌ بعد أن تعرف عليه فعرف أنه الأخطل يعيره بما ناله منه جرير. ولذلك جاء قوله "هل ضغمت الذى يقول فيك كذا وكذا".

ويتضح لنا من ذلك أن الخليفة كان يتعامل مع الشعراء وكأنه واحد منهم، فلا يقيد رأى أحد منهم، ومن ثم يسود المجلس جو أدبى مفعم بالحرية. فالخليفة يستمع للجميع دون أن يعترض على ما يتراشقون به من ألفاظ قاسية. وتلك هى الحرية الأدبية التى كانت تسود فى ذلك الوقت.

5 - انشد كثير عزة – عبد الملك بن مروان مدحته التى يقول فيها:

على ابن أبى العاصى دلاصٌ حصينة أجاد المُسَدّى سرْدَها وأَذالَها

فقال له عبد الملك: أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معد يكرب؟

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى جـ297/5.

وإذا تجـىءُ كتيبـةٌ ملمومَـةٌ   شهباءُ يخشى الذائدون نهالَها
كنت المقدّمَ غيرَ لابس جُنَّةٍ   بالسيف تضربُ مُعْلِماً أبطالَها

فقـال يـا أمـير المـؤمنين: وصـف الأعشـى صـاحبه بـالطيش والخرق والتغرير، ووصفتك بالحزم والعزم فأرضاه".[1]

ويعلـق قدامـة بـن جعفـر علـى ذلـك بقولـه: " والـذى عنـدى فـى ذلك أن عبدالملك نظـر مـن كثير إلا أن يكـون كـثير غلـط واعتـذر بمـا يعتقـد خلافـه لأنـه تقـدم مـن قولنـا ، فـى أن المبالغـة أحسـن مـن الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية. والأعشى بالغ فى وصف الشجاعة حيث جعل الشجاع شديد الإقدام بغير جنة على أنه وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب. ففى وصف الأعشى دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه لأن الصواب لـه لا لغيره إلا لبس الجُنة. وقول كثير تقصير فى الوصف."[2]

ونلاحظ هنا أن الخليفة قد استقبح مدح كثيّر عزة فى أول الأمر، ولكنه عندما شرح لـه قوله ومعنى قول الأعشى. رأى أن ما قاله كثيّر فى مدحه حسن فرضىَ به وذلك عن علم لا عن جهل.

(1) طبقات فحول الشعراء لابن سلام، جـ2/541: 542. وراجـع كـذلك الموشـح للمرزبانى ص 178: 179.
(2) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص 100.

ويتضح لنا أيضاً أن كثيراً وصف الخليفة بأنه يحتاط لنفسه فى الحرب بدليل أنه يلبس دروعاً حصينة محكمة الصنع يثقل حملها على الضعيف. والاحتياط من صفات ذوى العزم والعقل وبُعد النظر، ولكن عبد الملك – ولابد أنه لحزمه وعزمه كان فى المعركة محتاطاً لنفسه – لا يرضى بهذا الوصف الذى وصفه به كثير. والذى يطابق واقعه، وإنما يريد من شاعره أن يبالغ فى وصف شجاعته. فيصوره محارباً بارعاً يتقدم جنوده ويتحدى أعداءه غير حذر ولا محتاط إذ لا يرتدى درع الوقاية ولا يتخفى عن القوم؛ بل يعلمهم بمكانه. ويمضى فى مقاتلة الأبطال من أعدائه. وذلك على عادة ما كان يفعل الفرسان فى الجاهلية.

وواضح أن هذه الرواية تظهر لنا ما يتمتع به الخليفة من تذوق أدبى ونقدى. فهو أديب بصير، وعالم بما قاله الشعراء فى المعانى المتنوعة قديماً وحديثاً وذو بصر بمسالك الشعراء وطرائقهم فى المديح.

وكذلك يتضح لنا أن الخليفة إنما يسير مع اتجاه الشعراء العرب فى المثالية فى الوصف أى وصف المثل الأعلى للممدوح لا فى وصفه وصفاً عادياً كما هو عليه فى واقع حاله.

6 - وهناك مجلس نود أن نختم به الحديث عن الخليفة وشاعره، المقدّم عنده على غيره من الشعراء وهو ذلك المجلس الذى كان بين الخليفة عبد الملك بن مروان وعزة صاحبة كثير.

فيروى أنه دخلت عزة على عبد الملك بن مروان وقد عُجزت فقال عبد الملك لها: أنت عزة كثيرّ؟ فقالت: أنا أم بكر الضَّمْرِيّة. وفى رواية صاحب الأغانى أنا عزة بنت جُميل، قال: أنت التى يقول لك كثير:

لعَّزةَ نارٌ ما تبوحُ كأنها	إذا ما رمقناها من البُعد كوكبُ

فما الذى أعجبه منك؟

قالت: كلا يا أمير المؤمنين! فوالله لقد كنت فى عهده أحسن من النار فى الليلة القرّة.

وفى حديث ابن صالح الأسلمى.

قالت له: أعجبه منى ما أعجب المسلمين حين صيروك خليفة، قال: وكانت له سِنٌ سوداءُ يخفيها. فضحك حتى بدت، فقالت له: هذا الذى أردت أن أبديه، فقال لها: هل تروين قول كثيرّ فيك:

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها	ومن ذا الذى يا عزُّ لا يتغيَّرُ؟!
تغير جِسمى والخليقةُ كالتى	عَهدْتِ ولم يُخْبَرْ بسرِّك مُخْبَرُ.

قالت لا ولكنى أروى قوله:

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضت ... من الصُّمِّ لو تمشى بها الصُّمُّ زلَّتِ
صَفوحًا فما تلقاك إلا بخيلةً ... فمَن ملَّ منها ذلك الوصلَ ملَّتِ.[1]

ويتضح لنا من ذلك أن الخليفة عبد الملك بن مروان لم يقتصر فى مجالسه الأدبية على الرجال فقط. وإنما كان للنساء نصيب أيضاً وخاصة تلك التى كانت لها مكانتها الأدبية فى ذلك الوقت كعزة صاحبة كثيّر.

فتذوق الخليفة الأدبى جعله يحيط بكل ما يصدر من شعر فى عصره أو فى العصور التى سبقته. حتى ذلك الشعر الذى كان يقال بين المحبين بعضهم البعض.

سادساً – مجالس الخليفة مع غير هؤلاء الشعراء:

وبعد أن تناولنا مُجالس الخليفة عبد الملك بن مروان مع هؤلاء الشعراء الذين هم فحول شعراء ذلك العصر. نود أن نقف وقفة سريعة مع غيرهم من الشعراء الذين كانت لهم مجالسهم الأدبية ولقاءاتهم الشعرية مع الخليفة. التى نستطيع أن نكشف من خلالها عن جانب آخر من التذوق الأدبى والنقدى الذى كان يتمتع به الخليفة عبد الملك بن مروان الأموى.

(1) الأمالى للقالى، جـ104/2. وراجع كذلك الأغانى لأبى فرج الأصبهانى جـ3147/9.

1 - دخل الجحّاف بن حكيم الشاعر على عبد الملك وقد أعطاه الأمان بعد غزوته لبنى الفَدَوْكَس رهط الأخطل وقتل من قتل منهم فى وقعة البشر فقال له: أنشدنى بعض ما قلت فى غزوتك هذه وفَجْرَتَك فأنشده قوله:

صبرتْ سُليمٌ للطعان وعامرٌ وإذا جزِعنا لم نجدْ من يصبِرُ

فقال له عبد الملك: كذبت! وما أكثر من يصبر! ثم أنشده:

نحن الذين إذا علَوْا لم يفخروا يوم اللقا وإذا علوا لم يضجروا

فقال عبد الملك: صدقت. حدثنى أبى عن أبى سفيان بن حرب أنكم كنتم كما وصفت يوم فتح مكة[1].

فالخليفة يعرف تاريخ القبائل وما تتصف به، ولذا فهو يوفى الجحّاف حقه فيما كذب فيه من شعر، وفيما صدق فيه.

2 - " دخل أرطأة بن سُهَيَّةَ على عبد الملك بن مروان فاستنشده شيئاً مما كان يناقض به شبيب بن البرصاء فأنشده:

أبى كان خيراً من أبيك ولم يزل جنيباً لآبائى وأنت جنيب

فقال له عبد الملك بن مروان: كذبت! شبيبٌ خيرٌ منك أباً. ثم أنشده:

وما زلتُ خيراً منك مُذْ عَضَّ كارهاً برأسك عاديُّ النجاد ركــوب

---

(1) الأغانى لأبى فرج الأصبهانى، جـ110/11.

فقال له عبد الملك: صدقت! أنت فى نفسك خير من شبيب فعجب من عبد الملك من حضر من معرفته مقادير الناس على بُعدهم منه فى بواديهم. وكان الأمر على ما قال: كان شبيب أشرف أباً من أرطأة. وكان أرطأة أشرف فعلاً ونفساً من شبيب". (1)

وهذا يدلنا على أن معرفة الخليفة عبد الملك لم تتوقف عند تذوق الشعر وفهم معانيه فقط. وإنما كان أيضاً على علم ومعرفة بأقدار الناس ومنزلتهم من حيث شرفهم وفعلهم.

3 - اجتمع عمر بن أبى ربيعة وكثيّر عزة، وجميل بن مَعْمَر " بباب عبدالملك بن مروان، فأذن لهم فدخلوا، فقال: أنشدونى أرق ما قلتم فى الغوانى:

فأنشده جميل بن معمر:

حلفتُ يمينًا يا بثينةُ صادقًا ... فإن كنتُ فيها كاذباً فعَميتُ
إذا كان جلْدٌ غيرُ جلدك مَسّنى ... وباشَرَنى دون الشّعارِ شَريتُ
ولو أن راقى الموت يُرقِى جَنازتى ... بمنطقها فى الناطقين حَيِيت

(1) الأغانى لأبى فرج الأصبهانى جـ267:268/11. وراجع أيضاً تاريخ النقد الأدبى عند العرب. للدكتور عبد العزيز عتيق.

وأنشد كثير عزة:

بـأبى وأمــى أنــت مــن مظلومــة	طَــبِنَ العــدوُّ لهــا فغيَّــر حالهــا
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى	فى الحسن عند مُوَفَّق لقضى لها
وســعى إلىَّ بصــرْمِ عــزةَ نِســوةٌ	جعــل المليــكُ خــد ودَهــنَّ نِعالهــا

وأنشد ابن أبى ربيعة المخزومى القرشى:

ألا ليت قبرى يوم تُقضى منيّتى	بتلك التى من بين عَيْنَيْكِ والفَم
وليت طَهورى كان ريقَك كلّه	وليـت حَنُـوطى مُشاشِك والـدّمِ
ألا ليت أمَّ الفضيل كانت قرينتى	هنــا أو هنــا فــى جنّــةٍ أو جهــنمَ

فقال عبد الملك لحاجبه: أعط كل واحد منهم ألفين وأعط صاحب جهنم عشرة آلاف."[1]

فالخليفة هنا بحضرته ثلاثة من الشعراء، يطلب منهم أن ينشدوه أرق وألطف ما قالوا فى الغوانى. وهؤلاء الشعراء مشهورون بغزلهم وتفوقهم وإجادتهم فى هذا الغرض من الشعر. ولذا حاول كل واحد منهم أن يقول أرق ما عنده. وتلك هى عادة الخليفة مع جلسائه، حيث كان يطلب منهم أن ينشدوه فى غرض أو موضوع معين. وكأنه يريد أن يختبرهم أو أن يقيس مدى علمهم بالشعر إلى علمه، ومدى ذوقهم الأدبى إلى ذوقه. وقد تذوق الخليفة ما قالوه، ومن ثم كانت جائزته إليهم بقدر إجادتهم وتفوقهم فى هذا الغرض.

---

(1) ذيل الأمالى والنوادر للقالى، ص 67.

4 - "دخل نُصيب على عبد الملك بن مروان، فعاتبه ولامه على قلة زيارته له وإتيانه إياه. فقال يا أمير المؤمنين: أنا عبدٌ أسودُ ولست من معاشرى الملوك. فدعاه إلى النبيذ، فقال يا أمير المؤمنين: أنا أسودُ البشرة، قبيح المنظرة، وإنما وصلت إلى مجلس أمير المؤمنين بعقلى. فإن رأى أمير المؤمنين ألا يُدخل عليه ما يزيله فعل. فأعفاه ووصله.

فقال نصيب فى سواده:

سودْتُ فلم أملك سوادى وتحته	قميصٌ من القُوهِىِّ بيضٌ بَنائقُه
ولا خير فى وُد امرئٍ مُتكارِهٍ	عليك ولا فى صاحبٍ لا تُوافقه
فإن شئت فارفضه فلا خيرَ عنده	وإن شئت فاجعله خليلاً تُصادقه[1]

ونلاحظ أن فى معاتبة الخليفة للشاعر نصيب ما يدل على حبه للشعر وتذوقه لمعانيه بصرف النظر عن قائله. فالخليفة حرص كل الحرص على مجالسة الشعراء والاستماع إليهم بغض النظر عن مكانة الشاعر الاجتماعية أو لونه وقبح منظره. فالذى يحرص عليه الخليفة هو الشعر. وما يحمل من معانٍ وأفكار.

5 - قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه. وكان يتجنب غير الأدباء. أى المناديل أفضل؟ فقال قائل منهم: مناديل مصر كأنها غرقىء البيض. وقال آخر مناديل اليمن كأنها

---

(1) ذيل الأمالى والنوادر للقالى، ص 127.

نورالربيع. فقال عبد الملك: ما صنعتما شيئا أفضل المناديل ما قال أخو تميم يعنى عبدة بن الطبيب:

لما نزلنا نصبنا ظِلَّ أخْبيةٍ	وفار للقوم باللُّحم المراجيلُ
وَرْدٌ وأشْقَرُ ما يُؤْنيه طابخه	ما غيّر الغَلْيُ منه فهو مأكول
ثمت قمنا إلى جُرد مسومةٍ	أعرافهنّ لأيدينا مناديل[1]

وفيما سبق ذكره ما يدلنا على خبرة الخليفة ومعرفته بالشعر والشعراء وتذوقه وفهمه لما يقولونه.

6 - "وفد العجير السلولى... على عبد الملك بن مروان فأقام ببابه شهراً لا يصل إليه لشغل عرض لعبد الملك ثم وصل إليه، فلما مثل بين يديه أنشده:

ألا تلك أمُّ الهِبْرزى تبيّنت	عظامى ومنها ناحِلٌ وكسير
وقالت تضاءلْت الغداة ومن يكن	فتىً قبل عامِ الماء فَهْوَ كبير
فقلت لها إن العُجيرَ تقلّبت	به أبْطُنٌ أبْلَينه وظهور
فمنهن إد لاجى على كل كوكبٍ	له من عُمانيِّ النجومِ نظير
وقرعى بكفّى باب مَلْكٍ كأنما	به القوم يرجون الأذينَ نُسور
ويومٍ تبارى السُنُّ القوم فيهمُ	وللموت إرحاءٌ بهن تدور
لو أن الجبال الصم يسمعن وقعها	لَعُدْن وقد بانت بهن فطور
فرحت جواداً والجواد مثابرٌ	على جريه ذو علة ويسير

(1) ينظر الكامل للمبرد، ص 327. والأغانى لأبى فرج الأصبهانى، جـ13/4579: 4581.

فقال له: يا عجير ما مدحت إلا نفسك، ولكنا نعطيك لطول مقامك. وأمر له بمائة من الإبل يعطاها من صدقات بنى عامر، فكتب له بها.[1]

فالخليفة نظر فيما قاله الشاعر فوجد فيه مدحاً لنفسه لا للخليفة، ومع ذلك أعطاه مائة من الإبل، بعد أن عرّفه ما ورد فى شعره، مما يدلنا على تذوقه للشعر وفهمه لدلالاته.

7 - "دخل الأقيشر على عبد الملك بن مروان وعنده قوم فتذاكروا الشعر وذكروا قول نصيب:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أَمُتْ فيا ويحَ دعدٍ مَن يهيمُ بها بعدى

فقال الأقيشر:

والله لقد أساء قائل هذا الشعر، قال عبد الملك: فكيف كنت تقول لو كنت قائله؟ قال: كنت أقول:

تُحبُّكُمُ نفسى حياتى فإن أمت أُوكّلْ بدعد من يهيمُ بها بعدى

قال عبد الملك: ولله لأنت أسوأ قولاً منه. حين تُوكّلُ بها فقال الأقيشر: فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أقول:

تحبكمُ نفسى حياتى فإن أمت فلا صَلُحَتْ دعدٌ لذى خُلّةٍ بعدى

---

(1) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى، جـ13/67: 69.

فقال القوم جميعاً: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم".[1]

ويقول المرزبانى:

" لم تجد الرواة ومن يفهم جواهر الكلام لبيت نصيب هذا مذهباً حسنا، وقد ذكر عبد الملك ذلك لجلسائه فكل عابه".[2]

ذلك مجلس من المجالس الأدبية التى كان يعقدها الخليفة. وقد دار فيها الحديث حول بيت قاله الشاعر نصيب فى محبوبته. وقد جاء حكم الأقيشر بأن نُصيباً أساء فى قوله. فيطلب منه الخليفة أن يقول هو. وجاء حكم الخليفة عليه أنه أسوأ قولاً من نصيب. ثم جاء قول الخليفة نفسه فحكم عليه الحاضرون جميعاً بأنه أجود الثلاثة قولاً وأكثرهم بالشعر علما " فهو أشعر القوم".

تلك هى بعض المجالس الأدبية التى كان يعقدها الخليفة مع الشعراء والأدباء فى عصره والتى يتضح من خلالها ذوق الخليفة الأدبى وحسه النقدى. وقدرته على بث روح التنافس بين الشعراء لحثهم على إخراج المعانى فى أجمل صورها.

فقد كان كثيراً ما ينصح الشعراء بالبعد عن الأوصاف الحسية حين يمدحون ويطالبهم بالاتجاه إلى الصفات الخُلقية التى هى أبقى وأخلد. وبذلك يكون هذا الخليفة بتذوقه وفهمه لمعانى النص ودلالاته، قد ترك لنا تراثاً ضخماً من الأدب والنقد، حيث خطا النقد

---

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة جا419/1. وكذلك الكامل للمبرد جـ106/1.

(2) الموشح للمرزبانى، ص 225. وانظر أيضاً الكامل للمبرد جـ106/1.

بعد ذلك خطوات جيدة نحو الموضوعية. ومحاولة إبراز الأحكام الأدبية فى صورة تقتنع بها العقول. وتقبلها الأذواق الرفيعة، وذلك بالعمل على ذكر الأسباب التى بنيت عليها تلك الأحكام.

ومن ثم نلحظ " فيما نجد من آثار العصر العباسى إفادة علمائه من تلك الكلمات المأثورة ومن النصوص النقدية التى أثرت عن العلماء والأدباء والشعراء الذين عاشوا قبل عصرهم وفى بيئات تخالف بيئاتهم.

وإن تلك الأقوال كانت نواة صالحة وأساساً اعتمدوا عليه فى بناء صرح النقد الأدبى عند الأمة العربية".[1]

وخلاصة القول: أن التذوق الأدبى والنقدى الذى تحلى به الخليفة عبد الملك بن مروان الأموى كان أساساً صحيحاً بنى عليه النقاد التالين له آراءهم النقدية التى جاءت فى الكثير منها مطابقة لما كان يراه الخليفة، كما نجد ذلك واضحاً عند كل من ابن قتيبة وابن رشيق القيروانى وأبى هلال العسكرى وقدامة بن جعفر وغيرهم من النقاد.

وكذلك كان له سبق تفضيل المعانى الخلقية فى المديح على المعانى الجسدية وغير ذلك مما أشرنا إليه فى طيات هذا البحث.

---

(1) دراسات فى نقد الأدب العربى للدكتور بدوى طبانة ص 128.



الخاتمة

كان هذا البحث محاولة للتعرف على الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان والوقوف على ما تمتع به من حاسة تذوقية أدت به لأن يكون واحداً من هؤلاء الذين تمكنوا من أن يكون لتذوقهم حينما يسمعون هذه الأحكام النقدية حيث بنيت على ما ألقى على مسامعه من نصوص أدبية فى مجالسه العلمية وكانت بين شعر ونثر..

وهو ما يدعو إلى الإقرار بأنه كان واحداً من أعظم خلفاء بنى أمية حيث المكانة الأدبية والتاريخية. فهو قد عاش فى عصر من أزهى عصور العربية فى آدابها وفنونها القومية، فقد كان عبد الملك بن مروان على رأس خلفاء بنى أمية فى التذوق الأدبى وفهم النص الشعرى. ودلالاته ومعانيه. ولذا جاءت توجيهاته وإرشاداته للكثير من شعراء عصره، فكانت منارات واضحة أنارت الطريق للنقد الأدبى. وكانت هى اللبنة الأولى فى بناء بعض الآراء النقدية التى جاءت على ألسنة نقادنا العظام كابن قتيبة وابن رشيق القيروانى والمرزبانى وقدامة بن جعفر وأبى هلال العسكرى وغيرهم.

وذلك يدلنا بوضوح على ما كان يتمتع به الخليفة عبد الملك من تذوق أدبى ونقدى وحس مرهف وشعور رقيق وحاسة أدبية قوية يستطيع من خلالها فهم النصوص الأدبية واكتشاف معانيها ودلالاتها.

ومن خلال معايشتنا لهذا الموضوع نستطيع أن نخرج بالنتائج التالية:

1- كشف لنا هذا البحث عن عناية خلفاء بنى أمية ورعايتهم للأدب عامة وللشعر خاصة، فقد كانوا يتمتعون بحاسة التذوق الأدبى، فهم عرب خلص، عاشوا فى عصر من أزهى عصور العربية وذلك بعد أن نهلوا من القرآن الكريم ذلك المعين الذى لا ينضب، ومن ثم كانت عنايتهم للأدب مصورة فى نظراتهم الأدبية الثاقبة وتأملاتهم الفنية الواعية.

2- تبوأ الخليفة عبد الملك بن مروان مكانة أدبية وذلك لما عرف عنه من نسك وعبادة وتفقه فى الدين وكذلك تذوقه للأدب وفهمه لمعانيه وتوجيهه للشعراء. قبل توليه الخلافة وبعدها. ومن ثم كانت معرفته وتقديره لأهمية الشعر وأثره فى النفوس، وبيان ما كان عليه الشعراء فى عصره وفيما قبل عصره. وكذلك يُعد الخليفة عبد الملك من الخطباء المفوهين وذلك لما صدر عنه من خطب وحكم ووصايا عظيمة جعلته ضمن من يفتخر بهم فى الخطابة فى البيت الأموى.

3- بيان أهمية المجالس الأدبية والنقدية وأثرها الواضح فى النهضة الأدبية فى عصر بنى أمية. وذلك لما فيها من إشباع للرغبات وصقل للمواهب عن طريق تذوق الشعر وفهم دلالاته

ومعانيه. حيث ضمت تلك المجالس العديد من فحول شعراء هذا العصر وأدبائه النابهين وكان لابد لمن جالس كل هؤلاء وحاورهم وناقشهم، وفند أقوالهم ووجههم أن يكون على درجة كبيرة من التذوق الأدبى والحس النقدى المرهف. مما جعله مؤسساً لوضع الكثير من الآراء النقدية حيث جاءت تلك الآراء مبنية على تذوقه الأدبى وحسه النقدى.

4- من أخبار الخليفة عبد الملك بن مروان ما جاء فى صميم النقد ودل على سلامة ذوقه وقوة ملكته النقدية فقد ساعدته موهبته ومكنته مقدرته على ملاحظة بعض عيوب الشعراء ولفت انتباههم إلى ما يحسن ومالا يحسن من القول من المواقف الأدبية المختلفة ومنها على سبيل المثال:

- أخذه على بعض الشعراء عدم التجديد فى معانى شعر المديح وتشبيهاته والاقتصار على المعانى والتشبيهات التقليدية والوقوف عندها وتلك لايتضح فيها قصد ولا براعة وليس فيها جهد فنى يذكر لقائلها.

- كثيراً ما كان يتدخل بتعديل مالا يستحسن معناه وفى هذا مايدلنا على أنه لم يكن يتذوق الشعر فحسب وإنما كان يقرضه أيضاً.

- كان يرى أن الصدق عنصر من عناصر الشعر الجيد ومما يحسب لصاحبه فى ميزان النقد الأدبى. ولذا أخذ على بعض الشعراء كذبهم فى الشعر.

- التفت إلى نقد موسيقى الشعر فعاب على الشعراء بعض قوافيهم لما يظهر فيها من ليونة ورخاوة ينزلان بقيمة الشعر الصوتية وموسيقاه.

- كذلك التفت إلى سقم الذوق ومجافة كلام الشعراء لمقتضى الحال وعدم براعة الاستهلال أو حسن المطلع، ومن ثم عاب عليهم الغفلة ونبو الذوق.

- كثيراً ما نجد عناية الخليفة بالشعر والشعراء. ولذا لم يقف عند ضروب النشاط الأدبى والنقدى فقط، وإنما كثيراً ما كان يسأل الشعراء عن الجديد فى شعرهم. وكأنه يريد أن يثير حماسهم لمواصلة قول الشعر والاستزادة منه.

- كثيراً ما التفت الخليفة عبد الملك إلى النظر فى معانى الشعر والمفاضلة بينها وله فى ذلك الكثير من اللفتات التى تدل على ذوق أدبى مرهف، ولذا نراه قد أسهم فى نقد المعانى الجزئية وفضل بعضها على بعض. وإن كانت قد جاءت بعض أحكامه مؤجزة مجملة إلا أن المتأمل فيها لا يسعه إلا أن يقر بحسن تذوقه وقدرته على الموازنة بين المعانى. والتمييز بين ما أوفى منها بالغرض وما قصر دونه.

- وأخيراً نستطيع أن نقرر، أن الخليفة عبد الملك بن مروان يُعد من الرواد الذين أسسوا للكثير من الآراء النقدية التى ظهرت فى العصر الأموى والعصور التالية. حيث جاء تذوقه الأدبى والنقدى متفقاً مع هذه الآراء التى ظهرت على يد الكثير من النقاد العظام. وكثيراً ما كان تذوقه النقدى أقرب ما يكون إلى الموضوعية التى مهدت لظهور النقد الموضوعى بعد ذلك.



ثبت المصادر والمراجع

1- الأدب الأموى – صور رائعة من البيان العربى للدكتور إبراهيم على أبوالخشب. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

2- الأدب المفرد للبخارى، حققه محمد هشام البرهانى، المطبعة العصرية، أبوظبى، 1401هـ- 1981م.

3- أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى، طبعة نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1979م.

4- الأغانى لأبى فرج الأصبهانى. طبعة دار الشعب، تحقيق إبراهيم الأبيارى، 1389هـ - 1969م.

5- الأمالى لأبى على إسماعيل القالى. الطبعة الثالثة – مطبعة السعادة بمصر، 1373هـ- 1953م.

6- البداية والنهاية لابن كثير. الطبعة الأولى، دار الغد العربى، القاهرة.

7- البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر للدكتور على على صبح. المكتبة الأزهرية للتراث، 1998م.

8- البيان والتبيين للجاحظ. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . دار الجيل – بيروت.

9- تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الإعلام للذهبى، دار الغد العربى، الطبعة الأولى، 1996م.

10- تاريخ الخلفاء للسيوطى. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت.

11- تاريخ النقد الأدبى عند العرب. للدكتور عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

12- تاريخ النقد الأدبى عند العرب للأستاذ/ طه أحمد إبراهيم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1937م.

13- تاريخ النقد العربى للدكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر.

14- جمهرة خطب العرب. للدكتور أحمد زكى صفوت. المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

15- الخطابة العربية فى عصرها الذهبى للدكتور إحسان النص، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر.

16- الخلافة الأموية للدكتور عبد الأمير عيد حسين دكسن. بيروت، 1973م.

17- دراسات فى نقد الأدب العربى للدكتور بدوى طبانة، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

18- ديوان جرير. تحقيق محمد إسماعيل الصاوى- الطبعة التجارية.

19- زعماء الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن . مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، 1980م

20- شرح شواهد المغنى للسيوطى، لجنة التراث، بيروت.

21- شرح نهج البلاغة لأبن أبى الحديد. مصر 1329هـ.

22- الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، الطبعة الثالثة، 1977م.

23- الشعر وطوابعه الشعبية للدكتور شوقى ضيف. الطبعة الثانية – دار المعارف.

24- طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى. قرأه وشرحه محمود محمد شاكر. الهيئة العامة لقصور الثقافة.

25- عبد الملك بن مروان للدكتور محمد ضياء الدين الريس. الطبعة الثانية، القاهرة، 1969م.

26- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر 1940م.

27- العمدة لابن رشيق. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت – لبنان – الطبعة الرابعة – 1972م.

28- فجر لإسلام لأحمد أمين. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

29- قدامة بن جعفر والنقد الأدبى للدكتور بدوى طبانة، الطبعة الثانية.

30- الكامل فى اللغة والأدب للمبرد. مكتبة المعارف، بيروت.

31- كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى، تحقيق الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1404هـ- 1984م.

32- الكشكول، تحقيق الطاهر أحمد الزاوى. الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1998م.

33- لباب الألباب لأسامة بن منقذ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1400هـ - 1980م.

34- محاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى، بيروت.

35- المرشد فى فهم أشعار العرب وصناعتهم لعبد الله الطيّب، الطبعة الثانية، دار الفكر، 1970م.

36- مروج الذهب للمسعودى بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، 1387هـ - 1967م.

37- المصون فى الأدب. تحقيق عبد السلام محمد هارون – مكتبة الخانجى بالقاهرة – الطبعة الثانية – 1402هـ - 1982م.

38- مناهج البحث البلاغى فى الدراسات العربية للدكتور

عبدالسلام عبدالحفيظ، دار الفكر العربى.

39- الموشح للمرزبانى. تحقيق وتقديم محمد حسين شمس الدين . دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ- 1995م.

40- نقد الشعر لقدامة بن جعفر، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، دار الكتب العلمية؛ بيروت لبنان.


المحتويات

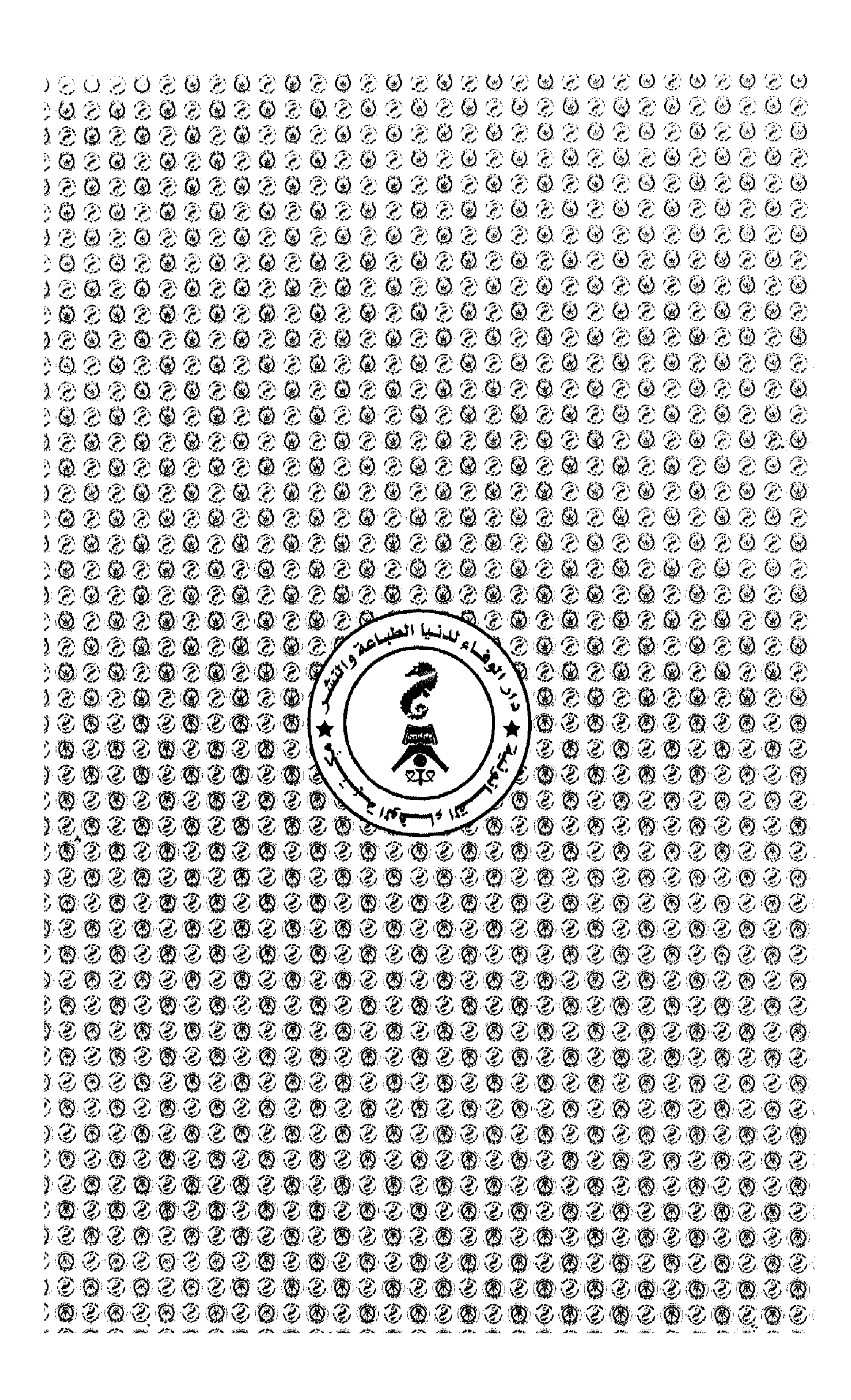
الموضوع	رقم الصفحة

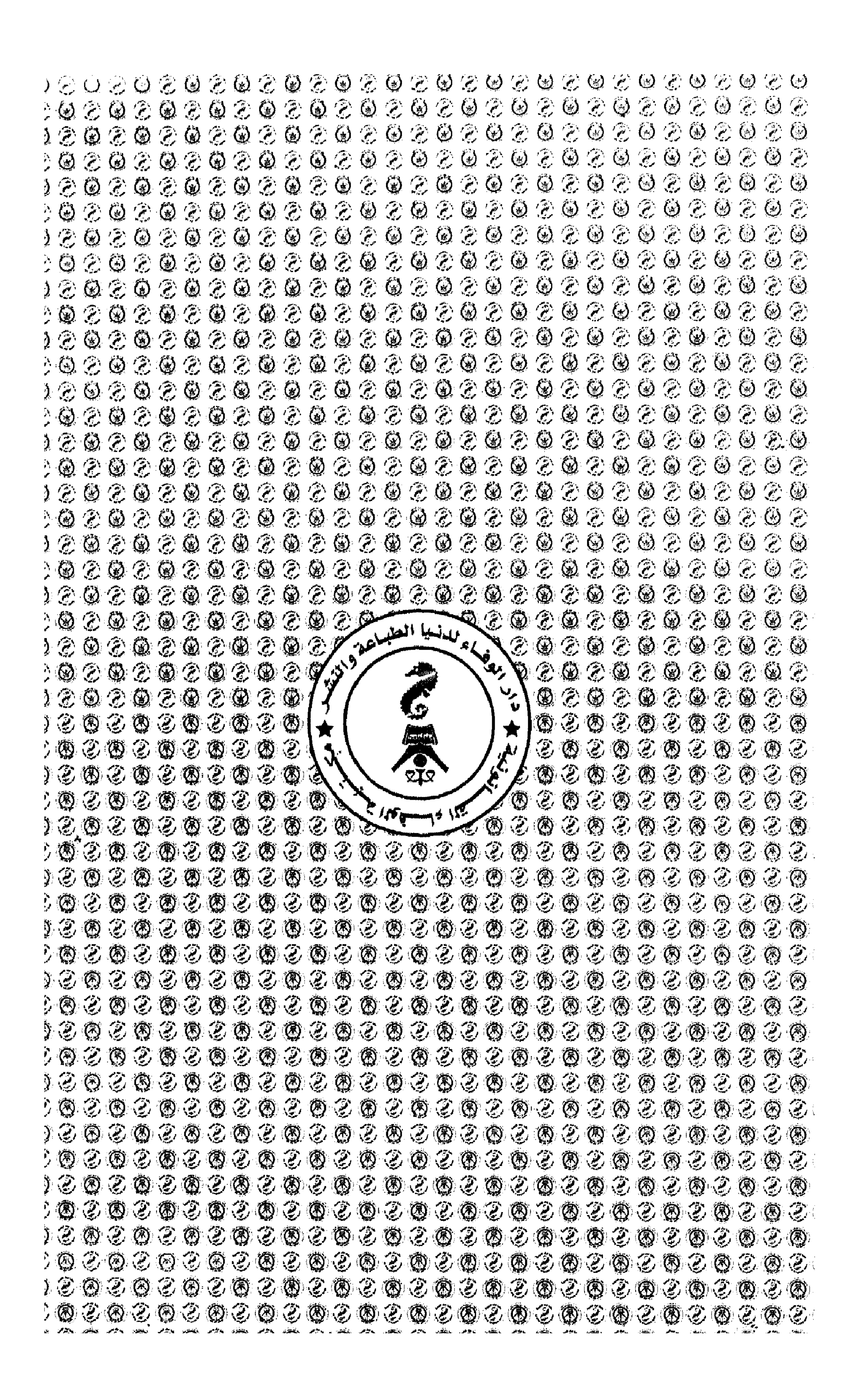
الموضوع	رقم الصفحة
ثالثا: المحور الثانى: مجالس الخليفة الأدبية والنقدية.	79
(1) مجالس الخليفة والأخطل شاعر بنى أمية	81
(2) مجالس الخليفة والشاعر جرير بن عطية	91
(3) مجالس الخليفة والأخطل شاعر بنى أمية	99
(4) مجالس الخليفة والشاعر الفرزدق	105
(5) مجالس الخليفة والشاعر كثير عزة	108
(6) مجالس الخليفة مع غير هؤلاء الشعراء	116
الخاتمة	125
ثبت المصادر والمراجع	133
فهرس الموضوعات	141



رقم الإيــداع : 2014/3339
الترقيم الدولى : 3-098- 735-977-978

مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: 5404480 - الإسكندرية


دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر


دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر







الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
٥٩ ش محمود صدقى متفرع من العيسوى سيدى بشر - الإسكندرية
تليفاكس : ٥٤٠٤٤٨٠ / ٠٠٢٠٣ - الاسكندرية

ISBN: 977-735-098-3

